د. مصطفى النشار
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب
جامعة القاهرة
....

أعلام التراث الفلسفى المصرى
[١]

ذو النون المصرى

رائد التصوف الإسلامى

الطبعة الأولى

الناشـــر
دار قـــبـــاء
للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

اسم الكتاب: سلسلة أعلام التراث الفلسفى المصرى

١ – ذو النون المصرى (رائد التصوف الإسلامى)

اسم المؤلف : د. مصطفى النشار

سنة النشر : ٢٠٠٦م

رقم الإيداع : ١٨٢٨٠ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : 5 - 508 - 303 - 977

الناشر

دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

(١٦) عمارات العبور شارع صلاح سالم – الدور الثالث –

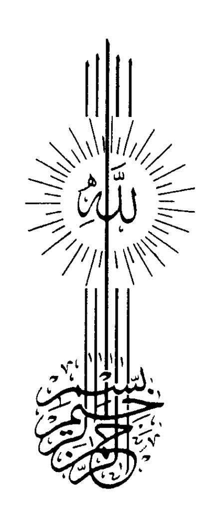
مدينة نصر

تليفاكس : ٠٢/٢٦٢١٣٦٥

محمول : ٠١٢/٣١٤٠٣١٥

ذو النون المصرى

رائد التصوف الإسلامى





الإهداء:

إلى روح أستاذى الفاضل

أ. د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

الذى علمنا المعنى الحقيقى للتصوف والزهد وكانت حياته المثل الأعلى لكل قيم الحياة الفاضلة.

تقديم السلسلة

يزخر تراث مصر الفلسفى بصفحات هامة قدمها أعلامه عبر التاريخ الحضارى الطويل لمصرنا الغالية. ولما كان تراثنا ملكنا وليس ملكا لأحد غيرنا، ولما كنا بالضرورة أقدر على إبرازه ونفض الغبار عنه وتقديمه للأجيال الجديدة فى مصر والعالم، فلا ينبغى أن نتوانى لحظة عن القيام بهذه المهمة القومية.

وأعتبر هذه بالفعل مهمة قومية نظرا لما درجنا عليه من إهمال واضح لهذا التراث بأشكاله المختلفة وخاصة فى مجال الدراسات الفلسفية. والحقيقة أن هذا الإهمال قد تسبب بشكل أو بآخر فى شيوع عدم الانتماء بين الأجيال الجديدة، وقد تسبب من جانب آخر فى هذه الهجمات المتتالية من قبل أعداء مصر فى كل مكان على تاريخها وأعلامها فأصبح مجالاً للنهب وللقيل والقال وأصبح كل من هب ودب يدعى أنه صانع المنجز الحضارى المصرى. وليس ببعيد ما يدعيه اليهود هذه الأيام من أنهم صانعو الحضارة المصرية القديمة وبناة الأهرام وطاردو الهكسوس.. إلخ!!

ولا يخفى علينا أن الدور الرائد والأهم فى الاهتمام بتراثنا الفكرى خاصة والحضارى عامة كان ولا يزال للعلماء والباحثين الغربيين. وليس بخاف على أحد أن هذا الاهتمام رغم كل ما فيه من جدية وجهد علمى رصين ورائد ليس خال من الأغراض السياسية

أو الأيدلوجية أو الدعائية. وفى اعتقادى أن جهدنا فى هذا المجال ينبغى أن يتجاوز ردود الأفعال إلى الأفعال، وينبغى أن يتجاوز محاولات الرد على المقولات الزائفة التى يشيعها ويروج لها الأخرون عن تراثنا وحضارتنا، إلى محاولة تقديم هذا التراث فى مختلف المجالات بروح مصرية وبجهد مصرى وبالطبع فليس أقدر على إبراز وتقديم درر ما فى تراث حضارى، أكثر من أصحابه أنفسهم.

ولما كنت عاشقا لمصر ولتراثها الحضارى عبر العصور، ولما كان تخصصى هو الفلسفة عامة والفلسفة القديمة على وجه الخصوص، فقد آليت على نفسى أن أقوم بجهد ما فى هذا المجال. وهو ان قل يشكل لبنة من لبنات تدعيم الانتماء إلى هذا التراث الحضارى العظيم لمصرنا الحبيبة. وهو وان تواضع يساهم فى إلقاء الضوء على مجال لازال بكرا فى اهتماماتنا القومية حيث إن الاهتمام بتاريخ مصر، وبآثارها وبإنجازاتها فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم قد بدأ منذ مطلع عصر نهضتنا الحديثة فى القرن التاسع عشر، بينما لا نزال نخطوا خطواتنا الأولى فى ميدان الاهتمام بتاريخ الفلسفة فى مصر رغم أن إسهامات المصريين فى تاريخ الفكر الفلسفى لا تقل بأى حال عن اسهامات العديد من شعوب العالم سواء فى الغرب أو فى الشرق.



والحقيقة أن المرء تتملكه الدهشة حينما يجد اهتمام الهنود واليابانيين والصينيين وغيرهم من شعوب العالم بإبراز دورهم الفلسفى عبر العصور، بينما نحن لا نزال نتصور خطأ أن إسهامنا وإسهام أجدادنا فى هذا الميدان يتضاءل لحد العدم!!

وقد آن آوان رفض هذا الشعور بالدونية والضآلة لأن الحقيقة أن تراثنا زاخر بالإنجازات الفلسفية فى مختلف العصور، لكننا أهملناه وأهملنا التركيز عليه وعلى دراسته مفضلين عليه الاهتمام بدراسة الفلسفات الغربية. ولا أدل على هذا الإهمال من النظر فى مناهج أقسام الفلسفة بالجامعات المصرية حيث لا تجد من بينها أى دراسة متخصصة لتراث مصر الفلسفى المهم إلا عبر مواد الفلسفة الإسلامية، أو الفكر الشرقى القديم أو الفكر العربى المعاصر، والأمر فى هذه الحالة بالطبع متوقف على اهتمامات الأستاذ الذى يدرس هذه المادة أو تلك! فربما - وهذا هو الأغلب بالفعل - لا يشير من قريب أو من بعيد لهذا التراث الفلسفى المصرى!!

وبالطبع فقد يقول القائل هنا: أين هذا التراث الفلسفى المصرى الذى ننادى بالاهتمام به؟! ولهذا القائل أقول: إن تراث مصر الفلسفى يبدأ من «النص المنفى» فى التراث الفلسفى لمصر القديمة ذلك النص الذى يرسم فيه مفكرو مصر لأول مرة تصورهم للإله الخالق المبدع للوجود، وتصورهم لأنه وهو يبدع الوجود أبدع معه

الخير والشر ونصح بنى البشر بأن يسلكوا طريق الخير ويبتعدوا عن طريق الشر. فى هذا النص البديع يبزغ فجر الاهتمام بتفسير الوجود، ويبزغ فى نفس الوقت فجر الضمير على حد تعبير برستيد عالم المصريات الشهير. ومنذ هذا التاريخ تتواصل الأجيال فى مصر عبر العصور فى تقديم ابداعاتها الفكرية فمن بتاح حتب وايبوور وأمنموبى واخناتون فى مصر القديمة، إلى فيلون وكلمنت وأوريجين وأفلوطين فى مصر فى عصر الإسكندرية، إلى علماء وفلاسفة مصر فى العصرين المسيحى والإسلامى إلى العصر الحديث. كل جيل يقدم ما استطاعه فى ضوء العصر الذى عاشه وفى ضوء الظروف التى واكبت هذا العصر. وأستطيع أن أجزم بأنه لم يكن إنجاز المفكر المصرى فى أى عصر بأقل من إنجازات غيره من مفكرى العالم فى ذات العصر.

كل ما هنالك أن علينا نحن واجب العودة إلى هذا التراث الضخم وإعادة قراءته وتحليله والكشف عن كوامنه وإبرازها للأجيال الحالية والقادمة لعلهم يفخرون بها ويواصلون نفس طريق الإبداع الذى ما انقطع يوما، ولكنه إن خبا زمنا فالنار دائما تحت الرماد. والابداع دائما موجود وإن غفلت عنه العيون وغطت عليه توافه الأعمال ومصالح الساسة والغزاة!!

يا أبناء مصر وبناتها فى القرن الواحد والعشرين ومع مطلع

الألفية السابعة من تاريخكم الممتد العظيم: هو تراثكم الفكرى فاهتموا به وبدراسته، هو زادكم الحقيقى فتزودوا به لمجابهة تحديات الحاضر والمستقبل، فمن لم يستفد من تراثه وهو بهذا الثراء والغنى فقد ضل الطريق، ومن لم يعرف ماضيه حق المعرفة فلا حاضر له ولا مستقبل!

يا أبناء مصر وبناتها فى هذا الزمن والزمن القادم، لقد كانت مصر دائما وعبر التاريخ رائدة فى كل مجالات الحياه إلا فى الفترات التى عانت فيها من الغزاة والمستعمرين، فكونوا أنتم أيضا رواداً للإبداع والتجديد فى عصركم وفى زمنكم. وهذا التجديد وذلك الإبداع لا يكون إلا بربط حاضركم بماضيكم، وبالتطلع الجاد إلى المستقبل. والقفز إلى الأمام يحتاج دائما إلى العودة إلى الوراء. وهذه السلسلة التى نقدمها لكم فى دراسة أعلام التراث الفلسفى المصرى تشكل الجانب الأهم من الوعى بريادة الماضى، لتكون زاداً نتزود به فى التعامل مع متطلبات الحاضر ودافعًا للإبداع والريادة فى المستقبل.

د.مصطفى النشار

مدينة نصر - القاهرة

فى ١٠ فبراير ٢٠٠١

الموافق: ١٦ من ذى القعدة ١٤٢١هـ



تصدير

يعد ذو النون المصرى من طلائع مفكرى مصر فى العصر الإسلامى حيث عاش حياته ما بين القرنين الثانى والثالث الهجريين، الثامن والتاسع الميلاديين. وإذا كانت شهرته قد ارتبطت بريادته لتيار التصوف الإسلامى المؤسس على القرآن والسنة والخالى من أى شبهة من شبهات التطرف التى وجدناها سواء لدى أصحاب الشطحات أمثال أبو يزيد البسطامى والحلاج، أو لدى دعاة التصوف من مدعى الدروشة من الدخلاء على التصوف بصورته الرائدة النقية الداعمة للعمل الإيجابى استنادا على النصوص الدينية المعتدلة، أقول إذا كانت شهرته قد ارتبطت بزهده وتصوفه وهو ما ركزنا عليه فى هذا الكتاب فإن هذا لا يمنعنا من التنبيه إلى أنه كان شخصية فلسفية موسوعية اهتم بالعلم واشتغل بالكيمياء والطب كما كان فقيهًا وشاعراً وتلك كانت سمة من سمات عصره.

ويأتى اهتمامى به من كونه أحد مفكرى مصر المعتدلين الرواد الذين لم يلقوا اهتماما كافيا من الباحثين والدارسين للفكر المصرى عامة والصوفى خاصة. وقد جاء هذا الاهتمام مصادفة حينما طُلب إلىَّ أن أكتب مادة عنه فى موسوعة أعلام العرب والمسلمين التى

تعدها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودهشت حين لم أجد عنه أى دراسات مستقلة متخصصة رغم ريادته ورغم أهميته باستثناء كتاب عام أعده السيد أبو ضيف المدنى وأصدرته دار الشروق، والعجيب أنه قد خلت معظم الكتب التى تؤرخ للتصوف الإسلامى من الحديث عنه، أما الكتب التى تحدثت عنه فقد اكتفت ببضعة سطور عن زهده وتصوفه.

وقد دفعنى ذلك إلى الرجوع إلى المصادر من أمهات الكتب التى تؤرخ لطبقات العلماء فى التراث العربى - الإسلامى. وقد وجدت أن أهمها بالنسبة للصوفية وتاريخهم هو كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ الأصفهانى. وكم كانت سعادتى حينما وجدت أن مؤلفه قد جمع كل الروايات التى تناقلها الرواة عن أقواله ومواقفه الصوفية.

وهنا وجدت أن من المهم جداً تصنيف هذه الأقوال والمواقف وإعادة نشرها حتى تكون مادة خصبة أمام الدارسين والباحثين فى التصوف الإسلامى لعلّهم يهتمون بتحليلها وتفسيرها ووضعها فى مكانها المناسب من ريادة وتأسيس للتيار الصوفى من تيارات الفكر الفلسفى الإسلامى التى انقسمت إلى أربع هى علم الكلام، وعلم الأصول، والفلسفة والتصوف.

لقد كان ذو النون سباقًا فى وضع أسس التصوف الإسلامى وبيان معانى أحواله ومقاماته. لقد وضع ملامح الطريق الصوفى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ فبين طرق المعرفة عامة وأوضح ملامح المعرفة الصوفية، الكشفية على وجه الخصوص، وعرف الخوف، والتوكل، والصبر، والزهد، والحياء، والمحبة، واليقين، والشكر، وحدد معنى الذكر والإخلاص لله وبين كيف يكون القرب من الله وكيف يدرك المرء حقيقة التوحيد وحقيقة الدنيا وحقيقة الذنب وحقيقة التوكل، وكيف يتذوق المريد حلاوة الحب الإلهى ويدرك شواهده وعلاماته.

إننى لم أقدم فى هذا الكتاب إلا أمرين اثنين: هما أولاً: دراسة مبسطة عن ذى النون:حياته ومذهبه الصوفى، وثانيًا: تصنيف تلك النصوص الثرية بمعانيها القوية فى مبناها، الغنية فى دلالاتها.

ولما كنت من غير المتخصصين فى التصوف الإسلامى رغم حبى الشديد له حيث كان من أهم ما قدمته من أبحاث فى السنة النهائية من دراستى الجامعية بحث بعنوان «الكشف كمنهج للمعرفة الصوفية». ولم آسف لشىء قدر أسفى على فقدان هذا البحث الذى نال اهتمام أستاذى الجليل أ.د. أبو الوفا التفتازانى وهو من هو فى مجال الدراسات الصوفية فى مصر والعالم العربى؛ أقول لما كنت من غير

المتخصصين فى التصوف الإسلامى فقد أثرت أن أترك أمر تحليل هذه النصوص ودراستها الدراسة الصوفية المتخصصة للباحثين فى هذا المجال الهام من مجالات الفكر الإسلامى.

وكلى أمل فى أن تلقى هذه النصوص وهذا الكتاب عن ذى النون اهتمامهم ويكون دافعا لمزيد من الدراسات حول هذا الصوفى المصرى الجليل.

الفصل الأول

ذو النون المصرى

حياته ومؤلفاته ومذهبه الصوفى

أولاً : مكانته فى عالم التصوف

ثانيًا : حياته واهتماماته الفكرية

ثالثًا : آثاره وكتاباته

رابعًا : منهجه فى المعرفة ومذهبه فى التصوف

الفصل الأول

ذو النون المصرى

حياته ومؤلفاته ومذهبه الصوفى

أولاً - مكانته فى عالم التصوف :

يعد ذو النون المصرى (١٥٥هـ/ ٧٧١م - ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) واحداً من أشهر رجالات التصوف الإسلامى عبر تاريخه، وهو فى رأى الكثيرين من مؤرخى التصوف وأعلامه مؤسس التصوف، وأول من فسر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق وأول من تحدث فى مصر عن «الأحوال» و«المقامات» الصوفية. كما كان أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفى وأول من وضع للوجد والذكر والحب تعريفات محددة. كما كان أول من جمعوا بين هذه الريادة الصوفية والاهتمام بنواحى العلم المختلفة فكان عالمًا فقهيًا وأديبًا وحكيمًا، طبيبًا وكيميائيًا وفيلسوفًا قبل أن يكون وحيد عصره وإمام المتصوفة فيه.

ثانيًا - حياته واهتماماته الفكرية :

ولد ثوبان بن إبراهيم المكنى بأبى الفيض والملقب بذى النون المصرى على الأرجح فى صعيد مصر بمدينة أخميم فى حوالى عام ١٥٥هـ - ٧٧١م على التقريب كما كانت وفاته بمصر أيضا حوالى عام ٢٤٥هـ - ٨٥٩م.

ورغم اختلاف المصادر حول تاريخ مولده ووفاته، إلا أنها تكاد تجمع على أصله النوبى حيث كان أبوه إبراهيم نوبيًا نزل بأخميم وأقام فيها فنسب إليها، وكان عبداً أعتقته قبيلة قريش فأصبح مولى لها. وذكر الخطيب البغدادى صاحب «تاريخ بغداد» أن أباه كان مولى لإسحق بن محمد الأنصارى. وأن له ثلاثة أخوة هم: ذو الكفل وعبد البارى والهميع. أما لقبه الذى اشتهر به وهو «ذو النون» فيعنى صاحب الحوت. وقد لقب به لإحدى كراماته حيث كان يسير ذات يوم على شاطئ النيل فوجد سيدة تبكى بشدة وجزع فسألها عما يبكيها فقالت إن ولدها ابتلعه الحوت فلما رأى ذو النون حرقتها على ولدها صلى ركعتين ثم دعا الله أن يظهر الحوت فخرج إليه فشق جوفه وأخرج ولدها حيا سليما[١].

يقول البستانى فى «دائرة المعارف» فى صفاته الشخصية أن ذا النون كان رجلا نحيفًا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية[٢].



أما عن أساتذته فترى بعض المصادر أنه تتلمذ على شقران العابد فكان شيخه فى الطريقة الصوفية، وترى مصادر أخرى أن أستاذه فى التصوف هو إسرافيل المغربى. وتشير المصادر إلى أنه كان كثير السفر والترحال طلبًا للعلم والمعرفة. ويغلب الظن بأنه قد أقام فى الحجاز زمنًا حيث تتلمذ هناك على الإمام مالك بن أنس وقد عُد بعد ذلك ضمن جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضى الله عنه على حد تعبير ابن خلكان[٣]. وقد ذكر أن أبى محمد التسترى لقى ذا النون بمكة[٤].

تنوعت فيما يبدو اهتمامات ذى النون فى شبابه حيث شغل فترة بحفظ الحديث وروايته ويبدو أنه قد نال من الثقافة الدينية فى أول أمره ما أهله لذلك. كما شغل كذلك بالبحث فى العلوم المختلفة وخاصة علوم الطب والفلسفة والكيميا ء، لكن كان آخرها أكثر اهتماماته العلمية فقد عده القفطى من طبقة جابر بن حيان فى هذا العلم[٥].

وتحدث ابن النديم عن أثره فى هذا العلم وذكر بعض كتاباته فى «الصنعة» أى فى علم الكيميا ء[٦]. ومعظم المصادر تؤكد هذه الاهتمامات العلمية لذى النون. وكان المسعودى أول من أكد ذلك باعتباره كان الأقرب إليه فقد توفى بعده بمائة عام وجمع معلومات



من أهل أخميم ذاتهم حيث زارها بنفسه. وقد سمع منهم أنه كان من المعنيين كثيراً بفك رموز الكتابة الهيروغليفية فى المعابد (البرابى) وأنه وفق بالفعل فى كشف أسرار كثير من الصور والنقوش المرسومة على جدرانها. وقد نقلوا عنه أنه وجد كتابًا فتدبره فإذا هو «إحذر العبيد المعتقين، والأحداث المقربين، والجند المتعبدين، والنبط المستعربين» ووجد كتابًا آخر فقرأه فإذا هو «يقدر المقدر والقضاء يضحك»[٧].

وقد أكد صاحب «حلية الأولياء» ذلك حينما روى عن أحدهم قوله أنه سمع ذا النون المصرى يقول: قرأت فى باب مصر بالسريانية كتابا فتدبرته فإذا فيه «يقدر المقدرون والقضاء يضحك»[٨].

ويعلل نيكولسون اهتمام ذى النون بالنقوش المصرية القديمة المكتوبة على المعابد وفك رموزها بأن مصر القديمة كانت فى نظر المسلمين مهد علوم الكيمياء والسحر وعلوم الأسرار[٩].

وعلى أى حال فلم يكن ممكنًا لذى النون وهو المهتم بالبحث فى حقيقة الوجود أن يبتعد عن التأثر بالبيئة المصرية القديمة وخاصة أنه نشأ فى هذه البلدة العريقة أخميم التى كانت على حد تعبير القفطى «بيتا من بيوت الحكمة القديمة والتى فيها التصاوير العجيبة



والمثـالات الغـريبـة التـى تزيـد المـؤمن إيـانًا والكافـر طغيانًا »[١٠].

أما عن سبب اتجاهه إلى الزهد والتصوف، فقد روى عن أحدهم أنه سأله عن سبب توبته فقال: خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان: إحداهما ذهب والأخرى فضة، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا، فقلت: حسبى قد تبت ولازمت الباب إلى أن قبلنى[١١].

وقد روى من أخباره الكثير؛ فقد استحضره الخليفة المتوكل من مصر، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرمًا، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكى ويقول إذا ذكر أهل الورع فحى هلا بذى النون[١٢]. وروى أن بعض الفقراء من تلامذته فارقه من مصر وقدم بغداد فحضر بها سماعًا، فلما طاب القوم وتواجدوا قام ذلك الفقير ودار واستمع، ثم صرخ ووقع، فحركوه فوجدوه ميتا، فوصل خبره إلى شيخه ذى النون، فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نمشى إلى بغداد، فلما فرغوا من أشغالهم خرجوا إليها فقدموا عليها، وساعة قدومهم البلد قال الشيخ: ائتونى بذلك المغنى

فأحضروه إليه، فسأله عن قصة ذلك الفقير، فقص عليه قصته. فقال له: مبارك؛ ثم شرع هو وجماعته فى الغناء فعند ابتدائه فيه صرخ الشيخ على ذلك المغنى فوقع ميتا. فقال الشيخ: قتيل بقتيل أخذنا ثأر صاحبنا، ثم أخذ فى التجهيز والرجوع إلى الديار المصرية ولم يلبث ببغداد بل عاد من فوره(١٣).

وقد روى أنه «لما حمل ذوى النون إلى جعفر المتوكل أنزله فى بعض الدور وأوصى به زرافة. وقال أنا إذا رجعت غدا من ركوبى فأخرج إلى هذا الرجل. فقال له زرافة: إن أمير المؤمنين قد أوصانى بك، فلما رجع فى الغد من الركوب قال له: انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام. فلما أخرجه إليه قال له: سلم على أمير المؤمنين، فقال ذو النون: ليس هكذا جاءنا الخبر إنما جاءنا فى الخبر أن الراكب يسلم على الراجل. قال: فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام فنزل أمير المؤمنين فقال له: أنت زاهد أهل مصر؟ قال: كذا يقولون، فقال له زرافة: فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد. قال: فأطرق مليا ثم قال: يا أمير المؤمنين إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم، يا أمير المؤمنين إن لله عبادا عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه، أبدانهم دنيوية،

وقلوبهم سماوية قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفُرج وأطباق السموات، لم يختبئوا فى ربيع الباطل ولم يرتعوا فى مصيف الآثام ونزهوا الله أن يراهم يثبتون على حبائل مكره، هيبة منهم له وإجلالاً أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشىء لا يدوم، وبلذة من العيش مزدهرة فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أطباق أهل المعرفة بالأدواء والنظر فى منابت الدواء فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر، فقال لهم: إن أتاكم عليل من فقدى فداووه أو مريض من تذكرى فأدنوه، أو ناسى لنعمتى فذكروه، أو مبارز لى بالمعاصى فنابذوه، أو محب لى فواصلوه، يا أوليائى فلكم عاتبت ولكم خاطبت ومنكم الوفاء طلبت، لا أحب استخدام الجبارين ولا قول المتكبرين، ولا مصافاة المترفين، يا أوليائى وأحبابى جزائى لكم أفضل الجزاء وإعطائى لكم أفضل العطاء، وبذلى لكم أفضل البذل، وأنا مقدس القلوب وأنا علام الغيوب، وأنا عالم بمجال الفكر ووسواس الصدر، من أرادكم قصمته ومن عاداكم أهلكته»[١٤].

وقد روى صاحب «حلية الأولياء» عشرات الروايات عن لقاءات ذى النون برفاقه من أهل الطريق الصوفى والزهاد، وقدم لنا عشرات



الروايات والنصائح التى ألقاها لتلاميذه والتى ألزمتهم الطريق وجعلتهم من خلصائه وأعلامه.

وقد توفى ذو النون بالجيزة فى مصر وقدر البعض تاريخ وفاته بأنه كان يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذى القعدة عام ٢٤٥هـ أو من عام ٢٤٦ فى رواية أخرى. وقد حمل جثمانه فى مركب خوفا على الجسر أن ينقطع من شدة الزحام، وقال أحد من حضروا جنازته - فيما يروى صاحب حلية الأولياء - أنه رأى الخفافيش تقع على نعشه وبدنه وتطير، وقال آخر: لما مات ذو النون رأيت على جنازته طيوراً خضراء فلا أدرى أى شىء كان[١٥]. وقد ذكر أن بعض أصحابه دخل عليه وهو يحتضر فقالوا له: أوصنا فقال: لا تشغلونى فإنى متعجب من محاسن لطفه. وروى الهجويرى فى «كشف المحبوب» أنه فى ليلة وفاة ذى النون رأى سبعون رجلا النبى عليه السلام فى النوم وهو يقول: جئت لألقى ذا النون خليل الله. وأنه بعد أن فاضت روحه وجد مكتوبا على جبينه: هذا حبيب الله الذى مات فى حب الله، وقتله الله[١٦].

وقد دفن رضى الله عنه فى مقابر أهل المعافر بالقرافة الصغرى وعلى قبره مشهد مبنى وفى المشهد أيضا قبور جماعة من الصالحين[١٧].

ثالثاً - آثاره وكتاباته :

معظم آثار ذو النون أقوال متناثرة وروايات متعددة رواها أصحابه وتلامذته وتناقلها المؤرخون وأشهرهم وأغزرهم مادة كان الحافظ الأصفهاني المتوفى ٤٣٠هـ فى كتابه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

ومع ذلك فقد ذكر لذى النون بعض المؤلفات فى كتابات بعض المؤرخين؛ فقد ذكر له ابن النديم مصنفين هما :

١ - كتاب الركن الأكبر.

٢ - كتاب الثقة فى الصنعة.

وهما من تصانيفه فى علم الكيمياء[١٨]. وذكر له التفتازانى نقلا عن الرسالة القشيرية رسالة عنوانها :

٣ - «الكلام على البسملة»[١٩]. وذكر له المستشرق كارادى فو ثلاث مؤلفات أخرى هى:

٤ - المجربات: ويحتوى على إرشادات طبية وتجارب كيميائية وتمائم سحرية وطلاسم وعزائم، ويوجد فى مكتبة باريس.

٥ - أشعار فى حجر الحكماء: ويوجد أيضا فى مكتبة باريس.

٦ - مناظرة بينه وبين تلميذه يعقوب فى حجر الحكماء: ويوجد بمكتبة برلين[٢٠].

وبالطبع فإننا لا نستطيع أن نحكم على مدى ما وصلت إليه معرفة ذو النون العلمية إلا بعد أن تنشر هذه المخطوطات المشار إليها لنتعرف على مضمونها وعلى ما فيها من معارف منسوبة إلى ذى النون.

أما معارفه الصوفية وآثاره فى مجال التصوف فقد روى لنا منها عبر كتابات أصحاب الطبقات والمؤرخين ما يكفى للكشف عن رؤيته الصوفية وعن مذهبه فى الزهد والتصوف.

رابعًا - منهجه فى «المعرفة» ومذهبه فى «التصوف»:

روى أن ذا النون يقسم المعرفة إلى ثلاثة أوجه؛ معرفة التوحيد وهى لعامة المؤمنين والثانية معرفة الحجة والبيان وهى خاصة للفلاسفة والعلماء والبلغاء، والثالثة معرفة خاصة بالأولياء وهى معرفة صفات الوحدانية. وقد عبر عن الوجه الأخير للمعرفة وهى المعرفة الصوفية الكشفية بقوله حينما سئل: كيف عرفت ربك؟ فأجاب «عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى»[٢١].

ومع أن ذا النون قد انتهى إلى تفضيل المعرفة الصوفية الخاصة بالأولياء على سائر المعارف الأخرى إلا أنه كان يدرك أهمية تلك المعارف الأخرى وخاصة الموصلة منها إلى الله. فقد روى أحدهم عنه قوله «تنال المعرفة بثلاث: بالنظر فى الأمور كيف دبرها، وفى المقادير كيف قدرها، وفى الخلائق كيف خلقها؟!»[٢٢].

ويبدو أن هذا المنهج العرفانى الذى فضله ذو النون قد شق على علماء وفقهاء عصره فهمه فأنكروه عليه وقالوا: أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة مما كان سببا فى اتهامه بالزندقه، وتعرضه للاضطهاد. والمعروف أنه قد اضطهد من قبل عبد الله بن الحكم شيخ علماء المالكية بمصر، ومن قبل ابن أبى الليث قاضى مصر مما جعلهم يأمرون بما حمله إلى بغداد مكبلا بالحديد لمحاكمته. وبالفعل

فقد سجن فى سجن «المطبق» ببغداد. ولما وصل الأمر إلى مسامع الخليفة المتوكل من بعض رجال الصوفية استدعاه وسمع منه ما جعله يطلق سراحه ويعيده إلى مصر معززا مكرما(٢٣).

لقد ألزم ذو النون نفسه بهذا المنهج الصوفى مما جعله يتجرأ وينقد مسلك كل علماء عصره وينعى عليهم بُعدهم عن حقيقة الدين. ومن أقواله فى ذلك «أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علمًا، ازداد فى الدنيا زهداً وبغضًا، وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علما، ازداد فى الدنيا طلبًا ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال فى طلب العلم، وأنتم اليوم تنفقون العلم فى تحصيل المال». وقد قال فيهم أيضا: «قد غلب على العباد والنساك والقراء فى هذا الزمان التهاون بالذنوب حتى غرقوا فى شهوة بطونهم وفروجهم وحجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون. أقبلوا على أكل الحرام وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم، لا أعلم، هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح. إن سألوا ألحوا، وإن سئلوا شحوا، لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التى يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو



والجدال والقيل والقال واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا فإياكم ومجالستهم»[٢٤].

لم يكن نقد ذو النون لعلماء عصره يستهدف الهجوم عليهم لمجرد الهجوم، بل كان يعبر فيه عن حقيقة دعوته إلى ضرورة الإخلاص فى كل عمل يعمله العبد؛ إذ لم يكن ينتقد فقط علماء وفقهاء عصره، بل انتقد أيضًا بعض دعاة الزهد. وقد روى عنه فى ذلك قوله: «إياك أن تكون فى المعرفة مدعيًا وتكون بالزهد محترفا، وتكون بالعبادة متعلقًا. فقيل له: يرحمك الله فسر لنا ذلك. قال: أما علمت أنك إذا أشرت فى المعرفة إلى نفسك بأشياء وأنت معرى من حقائقها كنت مدعيا وإذا كنت فى الزهد موصوفا بحالة وبك دون الأحوال كنت محترفًا؛ وإذا علقت بالعبادة قلبك وظننت أنك تنجو من الله بالعبادة لا بالله كنت بالعبادة متعلقًا لا يوليها المنان عليك!»[٢٥].

وقد زاد نقد ذو النون هذا للزهاد والعباد والمتصوفة وضوحًا حينما حذر أحد أصحابه وتلامذته: «يا خراسانى احذر أن تنقطع عنه فتكون له مخدوعا» ولما سأله: كيف ذلك؟! قال: «لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه فينقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه». ثم قال: «تعلق الناس بالأسباب وتعلق الصديقون بولى الأسباب».

ثم قال: علامة تعلق قلوبهم بالعطايا طلبهم منه العطايا، ومن علامة تعلق قلب الصديق بولى العطايا انصباب العطايا عليه وشغله عنها به. ثم قال: ليكن اعتمادك على الله فى الحال لا على الحال مع الله. ثم قال: أعقل فإن هذا من صفوة التوحيد»[٢٦].

وإذا تركنا نقده لعلماء وفقهاء وزهاد ومتصوفى عصره، وتساءلنا عن رؤيته لحقيقة الطريق الصوفى مع ذلك الرجل الذى سأله: دلنى على طريق الصدق والمعرفة؟ فقال: «يا أخى أد إلى الله صدق حالتك التى أنت عليها على موافقة الكتاب والسنة، ولا ترق حيث لم ترق فتزل قدمك فإنه إذا زل بك لم تسقط، وإذا ارتقيت أنت تسقط. وإياك أن تترك ما تراه يقينا لما ترجوه شكًا»[٢٧].

إن هذا الطريق الذى يشير إليه ذو النون أول معالمه هو موافقة الكتاب والسنة فى كل الأحوال، وثانيها التدرج فى الطريق بحيث لا يرتقى العبد إلى مقام إلا إذا كان أهلا له ومتيقنا من بلوغه.

إن من معالم هذا الطريق بعد الطاعة والالتزام بالكتاب والسنة، الزهد والتوكل على الله. وقد عرف ذو النون الزهد فقال أنه يعنى: «الهروب من جميع ما يشغلك عن الله، لأن جميع ما شغلك عن الله هى دنيا»[٢٨].



أما التوكل فهو «خلع الأرباب وقطع الأسباب» أو «إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية، فطوبى لمن تطهر ولزم الباب، طوبى لمن تضمر للسباق، طوبى لمن أطاع الله أيام حياته»، «من وثق بالمقادير استراح، ومن صحح استراح ومن تقرب قرب، ومن صفى صفى له، ومن توكل وفق، ومن تكلف مالا يعنيه ضيع ما يعنيه»[٢٩].

وقد قال ذو النون أن أعلام الزهد ثلاثة: قصر الأمل وحب الفقر والاستغناء مع الصبر، كما قال إن اعلام التوكل ثلاث: نقص العلائق وترك التملق فى السلائق واستعمال الصدق فى الخلائق[٣٠]. أما علامات الاستغناء بالله فهى: التواضع للفقراء المتذللين، والتعظم على الأغنياء المتكبرين، وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين. أما أعلام المعرفة فهى أيضا ثلاث: الإقبال على الله، والانقطاع إلى الله، والافتخار بالله[٣١].

وحينما سئل ذو النون عن أى الأحوال أغلب على قلب العارف السرور والفرح أم الحزن والهموم؟ قال: أنه ليس هناك حال يشار إليه دون حال ولا سبب دون سبب «إن مثل العارف فى هذه الدار كمثل رجل قد توج بتاج الكرامة وأجلس على سرير فى بيت ثم علق من فوق رأسه بشعره وأرسل على باب البيت أسدان ضاريان فالملك

يشرف كل ساعة بعد ساعة على الهلاك والعطب فأنى له بالسرور والفرح على التمام[٣٢]!.

ولما سئل عن كمال العقل وكمال المعرفة، قال إذا كنت قائما بما أمرت به تاركا لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت متعلقا بالله فى أحوالك لا بأعمالك غير ناظر إلى سواه فأنت كامل المعرفة[٣٣].

وقال أيضا «البلاء ملح المؤمن إذا عدم البلاء فسد حاله»[٣٤]. ومن أفضل ما قاله فى هذا الصدد قاله عندما سئل عن حاله فقال: «مالى حال أرضاها ولا لى حال لا أرضاها، كيف أرضى حالى لنفسى إذ لا يكون منى إلا ما أراد من الأحوال، ولست أدرى أيا أحسن حالى فى حسن إحسانه إلى، أم حسن حالى فى سوء حالى إذ كان هذا هو المختار لى غير أنى فى عافية ما دمت فى العافية التى أظن أنها عافية إلا أنى أجد طعم ما عنده للذى تقدم من مرارة القديم وما حاجتى إلى أن أعلم ما هو إذا كان هو قد علم ما هو كائن وهو المكون للأشياء وهو الذى اختاره لى[٣٥].

وقد لخص ذو النون معالم الطريق حينما سأله أحدهم: كم الأبواب إلى الفطنة؟ فقال: أربعة أبواب: أولها الخوف ثم الرجاء ثم المحبة ثم الشوق. ولها أربعة مفاتيح، فالفرض مفتاح باب الخوف،

والنافلة مفتاح باب الرجاء، وحب العبادة والشوق مفتاح باب المحبة وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق وهى درجة الولاية. وبعد أن فصل كيف يؤدى كل باب من هذه إلى ما بعده انتهى إلى القول بأن «من شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله فى قلبه نور الاشتياق إليه وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه حتى يكون الله عز وجل هو الذى يناوله من يشاء من عباده»(٣٦).

وقد كثر حديث ذو النون فى الحب الإلهى، نثراً وشعراً فكان من أكثر صوفية الإسلام الأوائل عناية بتوضيح معناه وحقيقته، فقال عن «المحبة»: «هى التى لا تزيدها منفعة ولا تنقصها مضرة» أما دليلها فقد أوضحه شعراً بقوله:

شواهد أهل الحب باد دليلها * بإعلام صدق ما يضل سبيلها

جسوم أولى صدق المحبة والرضى * تبين عن صدق الوداد نحو لا

إذا ناجت الأفهام أنس نفوسهم * تخفى على الناس قبلها(٣٧)

وحينما سئل ذات مرة عن علامة الحب لله قال: إن المحبين لله شق لهم من قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى عز جلال الله فصارت أبدانهم دنيوية وأرواحهم حجبية وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة كالعيان وتشاهد ملك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم بحبهم له لا طمعًا فى جنة ولا خوفًا من نار(٣٨).



وروى عنه شعرا يصف فيه حال المحبين مع الله قال فيه:

مـجـال قلوب العـارفين بروضـة * سـمـاوية من دونهـا حـجب الرب

تكنفـهـا من عـالم السـر قـربه * فلو قـدر الآجـال ذابت من الحب

وأروى صداها كاس صرف بحبه * وبرد نسـيم جل عن منتـهى الخطب

فـيـا لقلوب قـربت فـتـقـربت * لذى العـرش مما زين الملك بالقـرب

رضيها فأرضاها فحازت مدى الرضى * وصلت من المحـبـوب بالمنزل الرحب

لهـا من لطيف العزم عزم سرت به * وتهـتك بالأفكار مـا داخل الحـجب

سـرى سـرها بين الحـبـيب وبينهـا * فأضحى مصونا عن سوى القرب فى القرب[٣٩]

لا أعرف شعراً بلغ هذه المرتبة من دقة الوصف وحلاوة الذوق لمقام القرب من الله ومحبته إلا بعض شعر رابعة العدوية وابن الفارض.

الهوامش

(١) انظر: البستاني : «دائرة المعارف».. المجلد الثامن، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٨٤م.

وأيضا: رينولد نيكلسون: فى التصوف الإسلامى وتاريخه، ترجمة د. أبو العلا عفيفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م، ص٩.

وكذلك: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت، بدون تاريخ، مجلد (١)، ص٣١٥ - ٣١٨.

(٢) البستانى: نفس المصدر السابق، ص٤١٥.

(٣) ابن خلكان: نفس المصدر السابق - مجلد (١)، ص٣١٥.

(٤) نفسه: مجلد (٢)، ص٤٢٩.

(٥) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، نشرة مكتبة المتنبى بالقاهرة، بدون تاريخ - ص١٢٧.

(٦) ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا المازندرانى، دار المسيرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م، ص٤١٩، ص٤٢٣.

(٧) السيد أبو ضيف المدنى: ذو النون المصرى، دار الشروق بالقاهرة وبيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، ص٤٣.

(٨) الحافظ الأصفهانى: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، الجزء التاسع، ص٣٣٩.

(٩) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى، ص١٠.

(١٠) القفطى: نفس المصدر السابق، ص١٢٧.

(١١) ابن خلكان: نفس المصدر، ص٣١٦.

(١٢) نفسه.

(١٣) نفسه، ص٣١٦ - ٣١٧.

(١٤) الحافظ الأصفهانى: نفس المصدر السابق، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(١٥) نفسه، ص٣٦٣.

(١٦) السيد أبو ضيف المدنى: نفس المرجع، ص٣٨ - ٣٩.

(١٧) ابن خلكان: نفس المصدر، ص٣١٨.

(١٨) ابن النديم: نفس المصدر، ص٤٢٣.

(١٩) د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م، ص١٠٢.

وراجع: عبد الكريم القشيرى: الرسالة القشيرية، طبعة مصر ١٣٣٠هـ، ص١٤٣.

(٢٠) نقلاً عن: السيد أبو ضيف المدنى، نفس المرجع، ص٤٢.

(٢١) نيكلسون: نفس المرجع السابق، ص٧.

(٢٢) الحافظ الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص٣٣٩.

(٢٣) السيد أبو ضيف المدنى: نفس المرجع، ص٤٨، ٤٩.

(٢٤) نفسه، ص٣٧ - ٣٨.

(٢٥) الحافظ الأصفهاني: نفس المصدر، ص٣٥٠.

(٢٦) نفسه، ص٣٥١.

(٢٧) نفسه، ص٣٥٣.

(٢٨) نفسه، ص٣٥٢.

(٢٩) نفسه، ص٣٨٠.

(٣٠) نفسه، ص٣٦٢.

(٣١) نفسه، ص٣٦٢ - ٣٦٣.

(٣٢) نفسه، ص٣٦١.

(٣٣) نفسه، ص٣٧٣.

(٣٤) نفسه.

(٣٥) نفسه، ص٣٨٢.

(٣٦) نفسه، ص٣٧٨ - ٣٧٩.

(٣٧) نفسه، ص٣٧٨.

(٣٨) نفسه، ص٣٦٦.

(٣٩) نفسه، ص٣٦٩.

المصادر والمراجع

١ - ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا المازندرانى، دار المسيرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.

٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د.إحسان عباس، مجلد ١ . ٢، دار الثقافة ببيروت، بدون تاريخ.

٣ - أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٧٩.

٤ - البستانى: دائرة المعارف، مجلد ٨، مطبعة المعارف ببيروت، ١٨٨٤.

٥ - الحافظ الأصفهانى (المتوفى ٤٣٠هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٦ - السيد أبو ضيف المدنى: ذو النون المصرى، دار الشروق بالقاهرة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣.

٧- القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبى بالقاهرة، بدون تاريخ.

٨ - عبد الكريم القشيرى: الرسالة القشيرية، طبعة مصر، القاهرة ١٣٣٠هـ.

٩ - نيكلسون ر.أ.: فى التصوف الإسلامى وتاريخه، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

الفصل الثانى

مختارات(*) من
نصوص ذو النون المصرى

أولاً : فى علامات الطريق الصوفى

ثانيًا : فى معانى بعض معالم الطريق الصوفى

ثالثًا : فى الحب الإلهى

رابعًا : حكاياته مع أهل الطريق وأخوانه فى الله

خامسًا : من عيون الشعر الصوفى لذى النون

سادسًا : متفرقات صوفية

(*) أخذنا هذه المتفرقات من نصوص ذى النون من كتاب: الحافظ الأصفهانى (المتوفى ٤٣٠هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الصادر عن دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، الجزء التاسع ص٣٣١ وما بعدها. ونحيل القارئ العزيز على هذا الجزء والجزء العاشر إذا أراد الإطلاع على مزيد من نصوص ذى النون.

الفصل الثانى

مختارات من نصوص
ذى النون المصرى

أولاً - من ثلاثيات ذى النون فى علامات الطريق الصوفى:

(١) من ثلاثيات ذى النون فى «طرق المعرفة» :

* سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الرازى - المذكور بنيسابور- يقول سمعت يوسف بن الحسين يقول سمعت ذا النون المصرى يقول: تنال المعرفة بثلاث: بالنظر فى الأمور كيف دبرها، وفى المقادير كيف قدرها، وفى الخلائق كيف خلقها؟

* حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهانى ثنا أحمد بن محمد ابن حمدان النيسابورى ثنا عبد القدوس بن عبد الرحمن الشاشى قال سمعت ذا النون المصرى يقول: إلهى ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شىء وأنك غالب لا تغلب وعالم لا تجهل وحليم لا تسفه وعدل لا تجور وصادق لا تكذب، إلهى فأنى أعترف

لك اللهم بما دل عليه صنعك، وشهد لك فعلك، فهب لى اللهم طلب رضاك برضاى ومسرة الوالد لولده يذكرك لمحبتى لك ووقار الطمأنينة وتطلب العزيمة إليك لأن من لم يشبعه الولوع باسمك ولم يروه من ظمائه ورود غدران ذكرك، ولم ينسه جميع الهموم رضاه عنك، ولم يلهه عن جميع الملاهى تعداد آلائك، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك منك كانت حياته ميتة وميتته حسرة وسروره غصة وأنسه وحشة. إلهى عرفنى عيوب نفسى وافضحها عندى لأتضرع إليك فى التوفيق للتنزه عنها، وأبتهل إليك بين يديك خاضعا ذليلا فى أن تغسلنى منها، واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم تجول فى ملكوتك وتتفكر فى عجائب صنعك ترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك قد ألبستهم خلع محبتك وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك. إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته ولا حاجزا إلا رفعته، ولا وعرا إلا سهلته، ولا بابا إلا فتحته، حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك، وتذيقنى طعم محبتك، وتبرد بالرضى منك فؤادى، وجميع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك، إلهى كيف استرزق من لا يرزقنى إلا من فضلك أم كيف أسخطك فى رضى من لا يقدر على ضرى إلا

بتمكينك. فيا من أسأله ايناسا به وايحاشا من خلقه ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجائى ارحم غربتى وهب لى من المعرفة ما أزداد به يقينا، ولا تكلنى إلى نفسى الأمارة بالسوء طرفة عين.

(٢) من ثلاثيات ذى النون

فى علامات «الخوف» و«التوكل» و«الصبر» و«الحكمة» و«الزهد» و«التواضع» و«السخاء» و«الحياء» و«المعرفة» و«التسليم».

* حدثنا أبى ثنا سعيد قال سمعت ذا النون يقول: ثلاثة علامات الخوف: الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد، وحفظ اللسان مراقبة للتعظيم ودواء الكمد إشفاقا من غضب الحليم. وثلاثة من أعمال الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤيتهم فى الأعمال نظراً إلى الله واقتضاء ثواب العمل فى الآخرة بحسن عفو الله فى الدنيا بحسن المدحة. وثلاثة من أعمال الكمال: ترك الجولان فى البلدان، وقلة الاغتباط لنعماه عند الامتحان، وصفو النفس فى السر والإعلان. وثلاثة من أعمال اليقين: قلة المخالفة للناس فى العشرة، وترك المدح لهم فى العطية، والتنزه عن دمهم فى المنع والرزية. وثلاثة من أعلام التوكل: نقض العلائق، وترك التملق فى

السلائق، واستعمال الصدق فى الخلائق. وثلاثة من أعلام الصبر: التباعد عن الخلطاء فى الشدة، والسكون إليه مع تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة. وثلاثة من أعلام الحكمة: إنزال النفس من الناس كباطنهم، ووعظهم على قدر عقولهم ليقوموا عنه بنفع حاضر. وثلاثة من أعلام الزهد: قصر الأمل، وحب الفقر، واستغناء مع صبر. وثلاثة من أعلام العبادة: حب الليل للسهر بالتهجد والخلوة، وكراهة الصبح لرؤية الناس والغفلة، والبدار بالصالحات مخافة الفتنة. وثلاثة من أعلام التواضع: تصغير النفس معرفة بالعيب، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل أحد. وثلاثة من أعمال السخاء: البذل للشىء مع الحاجة إليه، وخوف المكافأة استقلالا للعطية، والخوف على النفس استغناء لادخال السرور على الناس. وثلاثة من أعلام حسن الخلق: قلة الخلاف على المعاشرين، وتحسين ما يرد عليه من أخلاقهم، وإلزام النفس اللائمة فيما يختلفون فيه كفا عن معرفة عيوبهم. وثلاثة من أعلام الرحمة للخلق: انزواء العقل للملهوفين، وبكاء القلب لليتيم والمسكين، وفقدان الشماتة بمصائب المسلمين، وبذل النصيحة لهم متجرعًا لمرارة ظنونهم، وإرشادهم إلى مصالحهم وإن جهلوه وكرهوه. من أعظم الاستغناء

بالله: التواضع للفقراء المتذللين، والتعظم على الأغنياء المتكبرين؛ وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين. وثلاثة من أعلام الحياء: وجدان الإنس بفقدان الوحشة، والامتلاء من الخلوة بادمان التفكر، واستشعار الهيبة بخالص المراقبة. وثلاثة من أعلام المعرفة: الإقبال على الله والانقطاع إلى الله، والافتخار بالله. وثلاثة من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضا، والصبر عند البلا والشكر عند الرخا.

(٣) من ثلاثيات ذى النون

عن علامات «المحبة» و«الصواب» و«اليقين» و«الثقة فى الله» و«الشكر» و«الرضى» و«الشوق» و«الأنس بالله».

* حدثنا أبى ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة ثنا سعيد بن عثمان قال سمعت ذا النون يقول: كم من مطيع مستأنس، وكم عاص مستوحش، وكم محب ذليل، وكل راج طالب قال وسمعته يقول: اعلموا أن العاقل يعترف بذنبه، ويحس بذنب غيره، ويجود بما لديه ويزهد فيما عند غيره ويكف أذاه ويحتمل الأذى عن غيره والكريم يعطى قبل السؤال، فكيف يبخل بعد السؤال؟ ويعذر قبل الاعتذار، فكيف يحقد بعد الاعتذار؟ ويعف قبل الامتناع فكيف يطمع فى الازدياد. قال: وسمعته يقول: ثلاثة من أعلام المحبة: الرضا فى

المكروه، وحسن الظن فى المجهول، والتحسين فى الاختيار فى المحذور. وثلاثة من أعلام الصواب الأنس به فى جميع الأحوال، والسكون إليه فى جميع الأعمال، وحب الموت يغلبه الشوق فى جميع الأشغال. وثلاثة من أعمال اليقين: النظر إلى الله تعالى فى كل شيء، والرجوع إليه فى كل أمر، والاستعانة به فى كل حال. وثلاثة من أعمال الثقة بالله: السخاء بالموجود، وترك الطلب للمفقود، والاستنابة إلى فضل الموجود. وثلاثة من أعمال الشكر: المقاربة من الاخوان فى النعمة، واستغنام قضاء الحوائج قبل العطية، واستقلال الشكر لملاحظة المنة. وثلاثة من أعلام الرضى: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب فى حشو البلاء. وثلاثة من أعمال الإنس بالله: استلذاذ الخلوة والاستيحاش من الصحبة، واستحلاء الوحدة. وثلاثة من أعلام حسن الظن بالله: قوة القلب، وفسحة الرجا فى الزلة، ونفى الاياس بحسن الإنابة. وثلاثة من أعلام الشوق: حب الموت مع الراحة، وبغض الحياة مع الدعة، ودوام الحزن مع الكفاية.

* حدثنا أبى ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة ثنا سعيد بن عثمان الخليط عن أبى الفيض ذى النون المصرى قال: إن لله لصفوة من خلقه، وإن لله لخيرة من خلقه قيل له: يا أبا الفيض ذى النون

المصرى فما علامتهم؟ قال: إذا خلع العبد للراحة وأعطى المجهود فى الطاعة وأحب سقوط المنزلة قيل له: يا أبا الفيض فما علامة اقبال الله عز وجل على العبد؟ قال: إذا رأيته صابرا شاكرا ذاكرا فذلك علامة إقبال الله على العبد. قيل: فما علامة إعراض الله عن العبد؛ قال إذا رأيته ساهيا راهبا معرضا عن ذكر الله فذاك حين يعرض الله عنه. ثم قال: ويحك كفى بالمعرض عن الله وهو يعلم أن الله مقبل عليه وهو معرض عن ذكره: قيل له أبا الفيض فما علامة الإنس بالله؟ إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فإنه يؤنسك بنفسه ثم قال أبو الفيض: الدنيا والخلق لله عبيد، خلقهم للطاعة وضمن لهم أرزاقهم ونهاهم وحذرهم وأنذرهم، فحرصوا على ما نهاهم الله عنه، وطلبوا الأرزاق وقد ضمنها الله لهم، فلا هم فى أرزاقهم استزادوا. ثم قال: عجبا لقلوبكم كيف لا تتصدع!! ولأجسامكم كيف لا تتضعضع، إذا كنتم تسمعون ما أقول لكم وتعقلون.

ثانيًا - فى معانى بعض معالم الطريق الصوفى :

(١) فى معنى «الذكر» وطريق الصدق والمعرفة :

* حدثنا أبى ثنا أحمد ثنا سعيد بن عثمان. قال سمعت ذا النون يقول: ويحك من ذكر الله على حقيقة نسى فى حبه كل شىء، ومن نسى فى حبه كل شئ حفظ الله عليه كل شىء وكان له عوضا فى كل شىء قال : وسمعت ذا النون وأتاه رجل فقال: يا أبا الفيض دلنى على طريق الصدق والمعرفة. فقال: يا أخى أد إلى الله صدق حالتك التى أنت عليها على موافقة الكتاب والسنة، ولا ترق حيث لم ترق فتزل قدمك فإنه إذا زل بك لم تسقط، وإذا ارتقيت أنت تسقط. وإياك أن تترك ما تراه يقينا لما ترجوه شكا. قال: وسمعت ذا النون يقول حينما سئل: متى يجوز للرجل أن يقول: أرانى الله كذا وكذا؟ فقال: إذا لم يطق ذلك. ثم قال ذو النون: أكثر الناس إشارة إلى الله فى الظاهر أبعدهم من الله، وأرغب الناس فى الدنيا وأخفاهم لها طلبا أكثرهم لها ذما عند طلابها. قال وسمعته يقول: كلت ألسنة المحققين لك عن الدعاوى ونطقت ألسنة المدعين لك بالدعاوى. قال وسمعت ذا النون يقول:لا يزال العارف ما دام فى دار الدنيا مترددا بين الفقر والفخر، فإذا ذكر الله افتخر وإذا ذكر نفسه افتقر. قال وسمعت ذا

النون حينما سئل: بم عرف العارفون ربهم؟ فقال: إن كان بشىء فبقطع الطمع والإشراف منهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها وبذل المجهود من أنفسهم ثم إنهم وصلوا بعد إلى الله بالله.

* عن عبد الله بن ميمون قال: سألت ذا النون عن كمال العقل وكمال المعرفة فقال: إذا كنت قائما بما أمرت به تاركا لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت متعلقا بالله فى أحوالك لا بأعمالك غير ناظر إلى سواه فأنت كامل المعرفة.

(٢) فى حب الدنيا ومعنى «الإخلاص» :

* حدثنا عثمان بن محمد العثمانى ثنا أبو الحسن الرازى قال سمعت يوسف بن الحسين يقول قال ذو النون: صدور الأحرار قبور الأسرار، قال وسئل ذو النون: لم أحب الناس الدنيا؟ قال لأن الله تعالى جعلها خزانة أرزاقهم فمدوا أعينهم إليها، وقيل له ما إسناد الحكمة؟ قال: وجودها. وسئل يوما فيم يجد العبد الخلاص؟ فقال الخلاص فى الإخلاص، فإذا أخلص تخلص فقيل فما علامة الإخلاص؟ قال: إذا لم يكن فى عملك صحبة المخلوقين ولا مخافة ذمهم فأنت مخلص إن شاء الله تعالى.

(٣) فى أبواب «الفطنة» ومعالم «الطريق إلى الله» :

* أخبرنا محمد بن أحمد بن يعقوب البغدادى ثنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم قال قلت لذى النون: كم الأبواب إلى الفطنة؟ قال أربعة أبواب: أولها الخوف، ثم الرجاء، ثم المحبة ثم الشوق. ولها أربعة مفاتيح فالفرض مفتاح باب الخوف، والنافلة مفتاح باب الرجاء وحب العبادة والشوق مفتاح باب المحبة، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق، وهى درجة الولاية، فإذا همت بالارتقاء فى هذه الدرجة فتناول مفتاح باب الخوف، فإذا فتحته اتصلت إلى باب الفطنة مفتوحا لا غلق عليه، فإذا دخلته فما أظنك تطيق ما ترى فيه حينئذ يجوز شرفك الإشراف، ويعلو ملكك ملك الملوك، واعلم أى أخى أنه ليس بالخوف ينال الفرض، ولكن بالفرض ينال الخوف، ولا بالرجاء تنال النافلة. ولكن بالنافلة ينال الرجاء كما أنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح، ولكن بالمفاتيح تنال الأبواب، واعلم أنه من تكامل فيه الفرض فقد تكامل فيه الخوف، ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء، ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله، ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله فى قلبه نور الاشتياق إليه، وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه حتى، يكون الله عز وجل هو الذى يناوله من يشاء من عباده.

(٤) فى «معنى الزهد» و«القرب من الله» :

* حدثنا عثمان بن أحمد ثنا أحمد بن محمد بن عيسى قال سمعت يوسف بن الحسن يقول: أتى رجل من أهل البصرة ذا النون فسأله: متى تصح لى عزلة الخلق قال: إذا قويت على عزلة نفسك. قال: فمتى يصح طلبى للزهد قال: إذا كنت زاهدا فى نفسك هاربا من جميع ما يشغلك عن الله لأن جميع ما شغلك عن الله هى الدنيا. قال يوسف: فذكرت ذلك لطاهر القدسى فقال: هذا نزل أخبار المرسلين.

* حدثنا أبى ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة ثنا أبو عثمان سعيد ابن عثمان قال سمعت ذا النون المصرى - وسئل: أى الحجاب أخفى الذى يحتجب به المريد عن الله؟ فقال: ويحك: ملاحظة النفس وتدبيرها. وقال ذو النون: وقال بعضهم: علم القوم بأن الله يراهم على كل حال فاحترزوا به عمن سواه فقال له غيره من أصحابه من الزهاد - وكان حاضرا بمجلسه يقال له طاهر - يا أبا الفيض رحمك الله! بل نظروا بعين اليقين إلى محبوب القلوب فرأوه فى كل حالة موجودا، وفى كل لمحة ولحظة قريبا، وبكل رطب ويابس عليما، وعلى كل ظاهر وباطن شهيدا، وعلى كل مكروه ومحبوب قائما، وعلى تقريب البعيد وتبعيد القريب مقتدرا. ولهم فى كل الأحوال

والأعمال سائسا، ولما يريدهم به موفقا، فاستغنوا بسياسته وتدبيره وتقويته عن تدبير أنفسهم، وخاضوا البحار وقطعوا القفار بروح النظر إلى نظره البهيج، وخرقوا الظلمات بنور مشاهدته، وتجرعوا المرارات بحلاوة وجوده، وكابدوا الشدائد واحتملوا الأذى فى جنب قربه وإقبال عليهم، وخاطروا بالنفوس فيما يعلمون ويحملون ثقة منهم باجتيازه، ورضوا بما يضعهم فيه من الأحوال محبة منهم لإرادته وموافقة لرضاه، ساخطين على أنفسهم معرفة منهم بحقه، واستعدادا للعقوبة بعدله عليهم، فأداهم ذلك إلى الابتلاء منه فلم تسع عقولهم ومفاصلهم وقلوبهم محبة لغيره، ولم تبق زنة خردلة منهم خالية منه ولا باقيا فيهم سواه، فهم له بكليتهم، وهو لهم حظ فى الدنيا والآخرة، وقد رضى عنهم ورضوا عنه، وأحبهم فأحبوه، وكانوا له وكان لهم، وآثروه وآثرهم، وذكروه فذكرهم ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ فصاح عند ذلك ذو النون وقال: أين هؤلاء؟ وكيف الطريق إليهم وكيف المسالك؟ فصاح به: يا أبا الفيض! الطريق مستقيم، والحجة واضحة. فقال له: صدقت والله يا أخى، فالهرب إليه ولا تعرج إلى غيره.

(٥) فى معنى «التوكل»:

* حدثنا أبى ثنا أحمد ثنا سعيد قال ذو النون وسأله رجل فقال: يا أبا الفيض ما التوكل؟ فقال له: خلع الأرباب وقطع الأسباب. فقال له: زدنى فيه حالة أخرى. فقال: إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية. قال وسمعت ذا النون يقول: طوبى لمن تطهر ولزم الباب، طوبى لمن تضمر للسباق، طوبى لمن أطاع الله أيام حياته. قال وسمعته يقول: من وثق بالمقادير استراح، ومن صحح استراح ومن تقرب قرب، ومن صفى صفى له، ومن توكل وفق، ومن تكلف مالا يعنيه ضيع ما يعنيه.

(٦) فى حقيقة «السخاء»:

* حدثنا عثمان بن محمد ثنا أبو بكر البغدادى قال سمعت عبد الله بن سهل الرازى يقول سمعت يحيى بن معاذ يقول قال ذو النون: حقيقة السخاء أن تلزم البخيل فى منعه إياك لوما لأنك إنما لمته واشتغلت به لوقوع ما منعك فى قلبك ولو هان ذلك عليك لم تشتغل بلومه ثم أنشأ يقول:

كريم كصفو الماء ليس بباخل * بشىء ولا مهد ملاما لباخل

(٧) فى حقيقة «الدنيا»:

* حدثنا عثمان ثنا أحمد بن محمد بن عيسى ثنا محمد بن أحمد بن سلمة قال سمعت ذا النون وقيل له: ما علامة الأنس بالله؟ قال إذا رأيت أنه يوحشك من خلقه فإنه يؤنسك بنفسه، وإذا رأيت أنه يؤنسك بخلقه فاعلم أنه يوحشك من خلقه. ثم قال: الدنيا لله أمة، والخلق لله عبيد، خلقهم للطاعة، وضمن لهم أرزاقهم، فحرصوا على أمته، وقد نهاهم، وطلبوا الأرزاق وقد ضمنها لهم، فلاهم على أمته قدروا، ولا هم فى أرزاقهم استزادوا. ثم قال:

عجبًا لقلبك كيف لا يتصدع ... ولركن جسمك كيف لا يتضعضع
فاكحل بملمول السهاد لدى الدجى ... إن كنت تفهم ما أقول وتسمع
منع القرآن بوعده وعيده ... فعل العيون بليلها أن تهجع
فهموا عن الملك الكريم كلامه ... فهما تذل له الرقاب وتخضع

(٨) فى «الذنب» وأسبابه :

* حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبيد الله ثنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء ثنا أبو عثمان سعيد بن الحكم - تلميذ ذى النون - قال: سئل ذو النون: ما سبب الذنب؟ قال: اعقل ويحك ما تقول، فإنها من مسائل الصديقين. سبب الذنب النظرة، ومن النظرة

الخطرة، فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت، وإن لم تذكرها امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة وكل ذلك بعد باطن لم يظهر على الجوارح، فإن تذكرت الشهوة وإلا تولد منها الطلب، فإن تداركت الطلب وإلا تولد منه الفعل.

* حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم ثنا أبو حامد أحمد بن محمد النيسابورى ثنا عبد القدوس بن عبد الرحمن قال قيل لأبى الفيض ذى النون: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت تعبا إن نفعنى تعبى والموت يجد فى طلبى. وقيل له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت مقيما على ذنب ونعمة، فلا أدرى من الذنب أستغفر أم على النعمة أشكر. وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بطالا عن العبادة متلوثا بالمعاصى، أتمنى منازل الأبرار وأعمل عمل الأشرار. وسمعت ذا النون يقول: إلهى لو أصبت موئلا فى الشدائد غيرك أو ملجأ فى المنازل سواك لحق لى أن لا أعرض إليه بوجهى عنك، ولا أختاره عليك، لقديم إحسانك إلى وحديثه، وظاهر منتك على وباطنها، ولو تقطعت فى البلاء إربا إربا، وانصبت على الشدائد صبا صبا، ولا أجد مشتكى غيرك، ولا مفرجا لما بى عنى سواك. فيا وارث الأرض ومن عليها، ويا باعث جميع من فيها، ورث أملى فيك منى أملى، وبلغ همى فيك منتهى وسائلى.

(٩) الزهد «وصفوة التوحيد» :

* حدثنا عثمان بن محمد العثمانى ثنا أبو الحسن أحمد بن عيسى الرازى ثنا محمد بن أحمد بن سلمة النيسابورى قال سمعت ذا النون يقول: يا خراسانى إحذر أن تنقطع عنه فتكون مخدوعا. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه فينقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه. ثم قال: تعلق الناس بالأسباب وتعلق الصديقون بولى الأسباب. ثم قال: علامة تعلق قلوبهم بالعطايا طلبهم منه العطايا، ومن علامة تعلق قلب الصديق بولى العطايا أنصباب العطايا عليه وشغله عنها به. ثم قال: ليكن اعتمادك على الله فى الحال لا على الحال مع الله. ثم قال: أعقل فإن هذا من صفوة التوحيد.

* حدثنا عثمان بن محمد أخبرنا أحمد بن محمد قال سمعت يوسف بن الحسين يقول قلت لذى النون: دلنى على الطريق الذى يؤدينى إليه من ذكره. فقال: من أنس بالخلوة فقد استمكن من بساط الفراغ، ومن غيب عن ملاحظة نفسه فقد استمكن من مقاعد الإخلاص، ومن كان حظه من الأشياء هواه لم يبال على أى جنب وقع. قال: وسمعت ذا النون يقول: العارف متلوث الظاهر صافى الباطن. والزاهد صافى الظاهر متلوث الباطن. قال: وسمعت ذا

النون يقول: إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله فإذا سكن درجة الهيبة دامت طاعته لربه فإذا أطاع تولدت من الطاعة الرجاء فإذا سكن درجة الرجاء تولدت من الرجاء المحبة، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه سكن بعدها درجة الشوق فإذا اشتاق أداه الشوق إلى الأنس بالله فإذا اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم، ونهاره فى نعيم، وسره فى نعيم، وعلانيته فى نعيم.

ثالثـًا - فى الحب الإلهى :

(١) الحب أغلب «أحوال» العارف :

* حدثنا ظفر ثنا محمد بن أحمد بن محمد حدثنى أحمد بن عبد الله بن ميمون قال سمعت ذا النون يقول وقد سئل عن أ ول درجة يلقاها العارف قال التحير ثم الافتقار ثم الاتصال ثم انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة. قال: وسئل ذو النون ما أغلب الأحوال على العارف. قال حبه، والحب فيه، ونشر الآلاء وهى الأحوال التى لا تفارقه.

* حدثنا أحمد بن محمد ثنا الحسن بن على بن خلف قال سمعت إسرافيل يقول: أنشدنا ذو النون بن إبراهيم المصرى فقال:

توجع بأمراض وخوف مطالب * وإشفاق محزون وحزن كئيب
ولوعة مشتاق وزفرة واله * وسقطة مسقام بغير طبيب
وفطنة جوال وبطأة غائص * ليأخذ من طيب الصفا بنصيب
ألمت بقلب حيرته طوارق * من الشوق حتى ذل ذل غريب
يكاتم لى وجدا ويخفى حمية * ثوت فاستكنت فى قرار لبيب
خلا فهمه عن فهمه لحضوره * فمن فهمه فهم عليه رقيب
يقول إذا ما شفه الشوق واجدى * بك العيش يا أنس المحب يطيب
فهذا لعمرى عبد صدق مهذب * صفى فاصطفى فالرب منه قريب

(٢) معنى «الحب» وشواهده :

* حدثنا عثمان بن محمد قال سمعت أحمد بن عبد الله بن سليمان الدمشقى يقول سمعت أبا جعفر محمد بن خلف بن ضوء الرقى يقول سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله الصوفى يقول سئل ذو النون المصرى عن المحبة فقال: هى التى لا تزيدها منفعة ولا تنقصها مضرة. ثم أنشأ يقول:

شـواهد أهل الحب باد دليلها * بأعلام صدق ما يضل سبيلها
جسوم أولى صدق المحبة والرضى * تبين عن صدق الوداد نحو لها
إذا ناجت الأفهام أنس نفوسهم * بالسنة تخفى على الناس قبلها
وضجت نفوس المستهامين واشتكت * جوى كان عن أجسامها شربيلها
يحنون حزنا ضاعف الخوف شجوه * ونيران شوق كالسعير عليها
وساروا على حب الرشاد إلى العلى * نوم بهم تقواه وهو دليلها
فحطو بدار القدس فى خير منزل * وفاز بزلفى ذى الجلال حلولها

(٣) طعم الحب الإلهى والعلم والقرآن هما «الإنس بالله»:

* حدثنا محمد بن عثمان بن محمد ثنا أحمد بن محمد بن عيسى ثنا يوسف بن الحسين قال سمعت ذا النون يقول: الحب لله عام، والود لله خاص، لأن كل المؤمنين يذوقون حبه وينالونه وليس كل مؤمن ينال وده. ثم أنشأ يقول:



مــن ذاق طــعــم الــوداد * حــمى جــمــيع العــبــاد

مــن ذاق طــعــم الــوداد * قلى جــمــيع العــبــاد

مــن ذاق طــعــم الــوداد * سلى طريق العــبــاد

مــن ذاق طــعــم الــوداد * أنس برب العــبــاد

* حدثنا عثمان بن محمد ثنا عبد الله بن جعفر المصرى ثنا عبد الله بن محمد البرقعى قال سمعت ذا النون يقول: الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالناس غم واقع. قيل لذى النون: ما الأنس بالله! قال: العلم والقرآن.

(٤) علامة المحب :

* حدثنا محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون قال سمعت ذا النون يقول: قل لمن أظهر حب الله أحذر أن تذل لغير الله، ومن علامة المحب لله أن لا يكون له حاجة إلى غير الله.

(٥) القرب فى القرب :

* حدثنا أحمد بن محمد بن مقسم ثنا الحسن بن على بن خلف قال سمعت إسرافيل يقول سمعت ذا النون يقول: يا رب أنت الذى دخل فى رحمتك كل شىء فلم تضق إلا عمن ارتجله الشك إلى جحدك. قال وسمعت ذا النون يقول وقد وقف عليه رجل فسأله شيئا

فقال له ذو النون إن المتكفل برزقك غير متهم عليك. قال: وكنت مع ذى النون فى سفينة وأجد فى فمى بلة فبزقتها فى الماء فقال: تعست يا بغيض تبزق على نعمة الله. قال: وأنشدنى ذو النون رحمه الله تعالى:

مجال قلوب العارفين بروضة
سماوية من دونها حجب الرب
تكنفها من عالم السر قربه
فلو قدر الآجال ذابت من الحب
واروى صداها كأس صرف بحبه
وبرد نسيم جل عن منتهى الخطب
فيا لقلوب قربت فتقربت
لذى العرش ممازين الملك بالقرب
رضيها فأرضاها فحازت مدى الرضى
وحلت من المحبوب بالمنزل الرحب
لها من لطيف العزم عزم سرت به
وتهتك بالأفكار ما داخل الحجب
سرى سرها بين الحبيب وبينها
فأضحى مصونا عن سوى القرب فى القرب

قال وسمعت ذا النون يقول: اجلس إلى من تكلمك صفته ولا تجلس إلى من يكلمك لسانه.



رابعاً - حكاياته مع أهل الطريق وأخوانه فى الله :

(١) مع أخيه العليل: حول «نعمة المرض» :

* حدثنا أبى ثنا سعيد بن أحمد ثنا عثمان قال سمعت ذا النون يقول: اعتل رجل من إخوانى فكتب إلى أن أدعو الله لى، فكتبت إليه سألتنى أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم، واعلم يا أخى أن العلة مجزلة يأنس بها أهل الصفا والهمم والضياء فى الحياة ذكرك للشفاء ومن لم يعد البلاء نعمة فليس من الحكماء ومن لم يأمن التشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهمة على أمره، فليكن معك يا أخى حياء يمنعك عن الشكوى والسلام.

(٢) مع جارية انطاكية: حول معنى «السخاء» و«الطاعة»:

* حدثنا عبد الله بن محمد ثنا أبو بكر الدينورى . وحدثنا محمد بن إسحاق الشمشاطى قال سمعت ذا النون يقول: بينما أنا أسير فى جبال أنطاكية وإذا أنا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة من صوف فسلمت عليها فردت السلام ثم قالت ألست ذا النون المصرى؟ قلت عافاك الله كيف عرفتينى؟ قالت فتق الحبيب بينى وبين قلبك فعرفتك باتصال معرفة حب الحبيب ثم قالت اسألك مسألة؟ قلت سلينى قالت أى شيء السخاء؟ قلت البذل والعطاء.

قالت هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين قلت المسارعة إلى طاعة المولى قالت فإذا سارعت إلى طاعة المولى تحب منه خيرا قلت نعم للواحد عشرة قالت مر بابطال هذا، وهذا فى الدين قبيح ولكن المسارعة إلى طاعة المولى أن يطلع إلى قلبك وأنت لا تريد منه شيئا بشىء. ويحك يا ذا النون أنى أريد أن أقسم عليه فى طلب شهوة منذ عشرين سنة فاستحيى منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجر ولكن أعمل تعظيما لهيبته وعز جلاله قال ثم مرت وتركتنى.

(٣) حوار مع امرأة حول «أحزان الغربة» وفضل «البكاء» لدى العارفين :

* حدثنا أبى ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة وأحمد بن محمد بن أبان قالا: ثنا سعيد بن عثمان حدثنى ذو النون قال: بينما أنا فى بعض مسيرى إذ لقيتنى امرأة فقالت لى: من أين أنت؟ قلت رجل غريب. فقالت لى: ويحك وهل يوجد مع الله أحزان الغربة؟ وهو مؤنس الغرباء ومعين الضعفاء؟ قال فبكيت فقالت لى: ما يبكيك؟ قلت: وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع لى نجاحه. قالت: فإن كنت صادقا فلم بكيت؟ قلت: والصادق لا يبكى؟ قالت: لا! قلت: ولم؟ قالت: لأن البكاء راحة للقلب، وملجأ يلجأ إليه، وما كتم

القلب شيئا أحق من الشهيق والزفير، فإذا أسبلت الدمعة استراح القلب، وهذا ضعف الأطباء بأبطال الداء قال. فبقيت متعجبا من كلامها، فقالت لى: مالك؟ قلت: تعجبت من هذا الكلام. قالت: وقد نسيت القرحة التى سألت عنها؟قلت: لا ما أنا بالمستغنى عن طلب الزوائد قالت: صدقت حب ربك سبحانه، واشتق إليه فإن له يوما يتجلى فيه على كرسى كرامته لأوليائه وأحبائه فيذيقهم من محبته كأسا لا يظمأون بعده أبدا قال: ثم أخذت فى البكاء والزفير والشهيق وهى تقول: سيدى إلى كم تخلفنى فى دار لا أجد فيها أحدا يسعفنى على البكاء أيام حياتى ثم تركتنى ومضت.

(٤) حوار بين رجل وعالم يرويه ذو النون :

* حدثنا أحمد قال سمعت أبا محمد يقول سمعت إسرافيل يقول سمعت ذا النون يقول: كتب رجل إلى عالم: ما الذى أكسبك علمك من ربك، وما أفادك فى نفسك؟ فكتب إليه العالم: أثبت العلم الحجة، وقطع عمود الشك والشبهة، وشغلت أيام عمرى بطلبه، ولم أدرك منه ما فاتنى. فكتب إليه الرجل: العلم نور لصاحبه، ودليل على حظه، ووسيلة إلى درجات السعداء. فكتب إليه العالم: أبليت إليه فى طلبه جدة الشباب، وأدركنى حين علمت الضعف عن العمل به، ولو اقتصرت منه على القليل كان لى فيه مرشد إلى السبيل.

* حدثنا عبد الله بن محمد ثنا أبو بكر الدينورى ثنا محمد بن أحمد الشمشاطى قال سمعت ذا النون المصرى يقول: بينما أنا سائر على شاطئ نيل مصر إذا أنا بجارية تدعو وهى تقول فى دعائها: يا من هو عندألسن الناطقين، يا من هو عند قلوب الذاكرين، يا من هو عند فكرة الحامدين، يا من هو على نفوس الجبارين والمتكبرين، قد علمت ما كان منى يا أمل المؤملين. قال: ثم صرخت صرخة وخرت مغشيا عليها. قال وسمعت ذا النون يقول: دخلت إلى سواد نيل مصر فجاءنى الليل فقمت بين زروعها، فإذا أنا بامرأة سوداء قد أقبلت إلى سنبلة ففركتها ثم امتنعت عليها فتركتها وبكت وهى تقول: يا من بذره حبا يابسا فى أرضه ولم يك شيئا، أنت الذى صيرته حشيشا ثم أنبته عودا قائما بتكوينك وجعلت فيه حبا متراكبا، ودورته فكونته وأنت على كل شيء قدير. وقالت: عجبت لمن هذه مشيئته كيف لا يطاع، وعجبت لمن هذا صنعه كيف يشتكى. فدنوت منها فقلت: من يشكو أمل المؤملين؟ فقالت لى: أنت يا ذا النون، إذا اعتللت فلا تجعل علتك إلى مخلوق مثلك، واطلب دواءك ممن ابتلاك وعليك السلام، لا حاجة لى فى مناظرة الباطلين. ثم أنشأت تقول:

وكيف تنام العين وهى قريرة * ولم تدر فى أى المحلين تنزل

(٥) مع «مُحب» بيت المقدس :

* حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد ثنا أحمد بن عيسى الوشاء قال سمعت أبا عثمان سعيد بن الحكم يقول سمعت أبا الفيض ذا النون بن إبراهيم يقول: بينما أنا أسير ذات ليلة ظلماء فى جبال بيت المقدس، إذ سمعت صوتا حزينا وبكاءً جهيراً وهو يقول: يا وحشتاه بعد أنسنا يا غربتاه عن وطننا وافقراه بعد غنانا واذلاه بعد عزنا. فتبعت الصوت حتى قربت منه فلم أزل أبكى لبكائه حتى إذا أصبحنا نظرت إليه فإذا رجل ناحل كالشن المحترق فقلت يرحمك الله تقول مثل هذا الكلام. فقال: دعنى فقد كان لى قلب فقدته، ثم أنشأ يقول:

قد كان لى قلب أعيش به
بين الهوى فرماه الحب فاحترقا

فقلت له :

لم تشتكى ألم البلا
وأنت تنتحل المحبه

إن المحب هو
الصبور على البلاء لمن أحبه

حب الآله هو
السرور مع الشفاء لكل كربه

(٦) مع رفيقة «رابعة العدوية» حول «الحب» :

* حدثنا عثمان بن محمد بن عثمان ثنا محمد بن أحمد الواعظ ثنا العباس بن يوسف الشكلى ثنا سعيد بن عثمان. قال: كنت مع ذى النون فى تيه بنى إسرائيل فبينما نحن نسير إذا بشخص قد أقبل فقلت: أستاذ شخص، فقال لى: انظر فإنه لا يضع قدمه فى هذا المكان إلا صديق. فنظرت فإذا امرأة، فقلت: إنها امرأة، فقال: صديقة ورب الكعبة. فابتدر إليها وسلم عليها فردت السلام ثم قالت: ما للرجل ومخاطبة النساء؟ فقال لها: إنى أخوك ذا النون ولست من أهل التهم. فقالت: مرحبا حياك الله بالسلام. فقال لها: ما حملك على الدخول إلى هذا الموضع؟ فقالت: آية فى كتاب الله تعالى: (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) فكلما دخلت إلى موضع يعصى فيه لم يهننى القرار فيه بقلب قد أبهلته شدة محبته، وهام بالشوق إلى رؤيته. فقال لها: صفى لى فقالت: يا سبحان الله! أنت عارف تكلم بلسان المعرفة تسألنى؟ فقال يحق للسائل الجواب. فقالت: نعم، المحبة عندى لها أول وآخر، فأولها لهج القلب بذكر المحبوب، والحزن الدائم، والتشوق اللازم، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات. ثم أخذت فى الزفير والشهيق وأنشأت تقول:



فـــأحـــبك حـــبين حب الهـــوى
وحـــــبـــــا لأنـك أهـل لذاكــــــا
أمـــــا الذى هـو حب الهـــــوى
فـــذكـــر شـــغلت به عن ســـواكـــا
وأمـــــــــا الـذى أنـت أهـل لـه
فكشـــفك للحـــجب حـــتى أراكـــا
فـــمـــا الحـــمـــد فى ذا ولا ذاك لى
ولـكـن لك الحـــمـــــد فى ذا وذاكـــا

ثم شهقت شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا.

(٧) مع رجل غاص فى بحر الوَلّـه :

* حدثنا محمد بن محمد بن عبد الله بن زيد ثنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء ثنا سعيد بن عبد الحكم قال سمعت ذا النون يقول: خرجت فى طلب المناجاة فإذا أنا بصوت فعدلت إليه فإذا أنا برجل قد غاص فى بحر الوله، وخرج على ساحل الكمه، وهو يقول فى دعائه: أنت تعلم أنى لأعلم أن الاستغفار مع الإصرار لؤم، وأن تركى الاستغفار مع معرفتى بسعة رحمتك لعجز، إلهى أنت الذى خصصت خصائصك بخالص الأخلاص، وأنت الذى سلمت قلوب العارفين من اعتراض الوسواس، وأنت آنست الآنسين من أوليائك، وأعطيتهم كفاية رعاية المتوكلين عليك، تكلؤهم فى

مضاجعهم، وتطلع على سرائرهم، وسرى عندك مكشوف، وأنا إليك ملهوف. قال: ثم سكنت صرخته فلم أسمع له صوتا.

(٨) مع فتى المركب :

* حدثنا عثمان بن محمد ثنا أبو بكر محمد بن أحمد البغدادى ثنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم قال قلت لذى النون: صف لنا من خيار من رأيت. فذرفت عيناه وقال: ركبنا مرة فى البحر نريد جدة، ومعنا فتى من أبناء نيف وعشرين سنة، قد ألبس ثوبا من الهيبة. فكنت أحب أن أكلمه فلم أستطيع. بينما نراه قارئا، وبينما نراه صائما وبينما نراه مسبحا. إلى أن رقد ذات يوم، ووقعت فى المركب تهمة فجعل الناس يفتش بعضهم بعضا إلى أن بلغوا إلى الفتى النائم فقال صاحب الصرة: لم يكن أحد أقرب إلى من هذا الفتى النائم. فلما سمعت ذلك قمت فأيقظته فما كان حتى توضأ للصلاة وصلى أربع ركعات ثم قال: يا فتى ما تشاء؟ فقلت: إن تهمة وقعت فى المركب وإن الناس قد فتش بعضهم بعضا حتى بلغوا إليك. فالتفت إلى صاحب الصرة وقال: أكما يقول؟ فقال: نعم! لم يكن أحد أقرب إلى منك. فرفع الفتى يديه يدعو وخفت على أهل المركب من دعائه وخيل إلينا أن كل حوت فى البحر قد خرج وفى فم كل حوت درة فقام الفتى إلى جوهرة فى حوت فأخذها

فألقاها إلى صاحب الصرة وقال: فى هذه عوض مما ذهب منك وأنت فى حل.

(٩) مع الفتى الناسك :

* حدثنا عثمان بن محمد العثمانى ثنا محمد بن أحمد المذكر عن بعض أصحابه قال قال ذو النون لفتى من النساك: يا فتى خذ لنفسك بسلاح الملامة وأقمعها برد الظلامة، تلبس غدا سرابيل السلامة، وأقصرها فى روضة الأمان وذوقها مضض فرائض الإيمان، تظفر بنعيم الجنان. وجرعها كأس الصبر، ووطنها على الفقر، حتى تكون تام الأمر. فقال له الفتى: وأى نفس تقوى على هذا؟ فقال: نفس على الجوع صبرت، وفى سربال الظلام خطرت. نفس ابتاعت الآخرة بالدنيا بلا شرط ولا ثنيا. نفس تدرعت رهبانية القلق، ورعت الدجا إلى واضح الفلق، فما ظنك بنفس فى وادى الحنادس سلكت، وهجرت اللذات فملكت، وإلى الآخرة نظرت، وإلى العيناء أبصرت، وعن الذنوب أقصرت، وعلى الذر من القوت اقتصرت، ولجيوش الهوى قهرت، وفى ظلم الدياجى سهرت، فهى بقناع الشوق مختمرة، وإلى عزيزها فى ظلم الدجا مشتمرة، قد نبذت المعايش، ورعت الحشايش. هذه نفس خدوم عملت ليوم القدوم، وكل ذلك بتوفيق الحى القيوم.

(١٠) مع فتاة «الكعبة» والفتى الشره :

* حدثنا عثمان بن محمد العثمانى حدثنى محمد بن إبراهيم المذكر ثنا العباس بن يوسف الشكلى ثنا محمد بن يزيد قال سمعت ذا النون يقول: خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام فبينما أنا بالطواف إذا بشخص متعلق بأستار الكعبة، وإذا هو يبكى وهو يقول فى بكائه: كتمت بلائى من غيرك، وبحت بسرى إليك، واشتغلت بك عمن سواك، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك! ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك؟ ثم أنشأ يقول:

ذوقتنى طيب الوصال فزدتنى * شوقا إليك مخامر الحسرات

ثم أقبل على نفسه فقال: أمهلك فما ارعويت، وستر عليك فما استحيت، وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت، ثم قال: عزيزى ما لى إذا قمت بين يديك ألقيت على النعاس، ومنعتنى حلاوة قرة عينى له ثم أنشأ يقول:

روعت قلبى بالفراق فلم أجد * شيئا أمر من الفراق وأوجعا

حسب الفراق بأن يفرق بيننا * وأطال ما قد كنت منه مودعا

قال: فلم أتمالك أن أتيت الكعبة مستخفيا، فلما أحس تحلل بخمار كان عليه ثم قال: يا ذا النون غض بصرك من مواقع النظر فأنى حرام، فعلمت أنها امرأة. فقلت: يا أمة الله مم يحوى الهموم

قلب المحب؟ فقالت: إذا كانت للتذكار محاورة، وللشوق محاضرة، يا ذا النون أما علمت أن الشوق يورث السقام، وتجديد التذكار يورث الأحزان! ثم أنشأت تقول:

لم أذق طعم وصلك حتى * زال عنى محبتى للأنام

ثم أنشأت تقول:

نعم المحب إذا تزايد وصله * وعلت محبته بعقب وصال

فقالت أو جعتنى أما علمت أنه لا يبلغ إليه إلا بترك من دونه.

* حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا أحمد بن الحسين الأنصارى ثنا أبو عصمة قال كنت عند ذى النون وبين يديه فتى حسن يملى عليه شيئا قال فمرت امرأة ذات جمال وخلق قال فجعل الفتى يسارق النظر إليها، قال ففطن ذو النون فلوى عنق الفتى وأنشأ يقول:

دع المصوغات من ماء وطين * واشغل هواك بحور عين

(١١) مع الزنجى فى التيه

* حدثنا عثمان بن محمد قال سمعت أبا الحسن المذكر يذكر عن بعض أشياخه عن ذى النون قال: صحبت زنجيا فى التيه وكان مفلفل الشعر، فإذا ذكر الله أبيض، فورد على أمر عظيم، فقلت: لم يا هذا إنك إذا ذكرت الله تحول لونك وانقلبت عيناك؟ قال: فجعل يخطر فى التيه ويقول:



ذكـرنا ومـا كنا لننسى فنذكـر * ولكن نسـيم القـرب يبـدو فـيظهـر
فـاحـيـيى به عنى واحـيى به له * إذ الحق عنه مـخـبـر ومـعـبـر

قال ذو النون: فما طرق سمعى مثل حكمة ذلك الزنجى فعلمت أن لله تعالى عبادا تعلى قلوبهم بالأذكار كما تعلى الأطيار فى الأوكار، لو فتشت منهم القلوب لما وجدت فيها غير حب المحبوب.

قال ثم بكى ذو النون وأنشأ يقول:

وأذكر أصنافا من الذكر حشوها * وداد وشـوق يبـعـثـان على الذكـر
فـذكـر اليف الحب ممتـزج بهـا * يحل محل الروح فى طرفها يسـرى
وذكـر يعـز النفس منهـا لأنه * لها متلف من حيث يدرى ولا تدرى
وذكـر عـلا منى المفـاوز والذرى * يجل عن الأوصـاف بالوهم والفكر

(١٢) مع يوسف بن الحسين :

* حدثنا أبو عمرو عثمان بن محمد ثنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازى قال سمعت يوسف بن الحسين يقول: بلغنى أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم فخرجت من مكة قاصدا إليه حتى وافيته فى جيزة مصر، فأول ما بصرنى رآنى وأنا طويل اللحية وفى يدى ركوة طويلة، متزر بمئزر وعلى كتفى مئزر وفى رجلى ناسومة، فاستشنع منظرى فلما سلمت عليه كأنه ازدرانى، ولم أر منه تلك



البشاشة، فقلت فى نفسى: ما تدرى مع من وقعت؟ قال: فجلست ولم أبرح من عنده فلما كان بعد يومين أو ثلاثة جاءه رجل من المتكلمين فناظره فى شىء من الكلام فاستظهر على ذى النون وعليه فاغتنمت ذلك وبركت بين يديهما واستلبت المتكلم إلى وناظرته حتى قطعته. ثم ناظرته بشىء لم يفهم كلامى قال: فتعجب ذو النون - وكان شيخا وأنا شاب - قال فقام من مكانه وجلس بين يدى وقال: اعذرنى فأنى لم أعرف محلك من العلم، وأنت آثر الناس عندى. قال فما زال بعد ذلك يجلنى ويكرمنى ويرفعنى عن جميع أصحابه حتى بقيت على ذلك سنة فقلت له بعد ذلك: يا أستاذ أنا رجل غريب وقد اشتقت إلى أهلى وقد خدمتك سنة وقد وجب حقى عليك، وقيل لى إنك تعرف اسم الله الأعظم وقد جربتنى وعرفت أنى أهل لذلك، فإن كنت تعرفه فعلمنى إياه. قال: فسكت ذو النون عنى ولم يجبنى بشىء وأوهمنى أنه لعله يقول لى ويعلمنى ثم سكت عنى ستة أشهر فلما كان بعد ستة أشهر من يوم مسألتى إياه قال لى: يا أبا يعقوب أليس تعرف فلانا صديقنا بالفسطاط الذى يجيئنا؟ - وسمى رجلا -: فقلت بلى! قال: فأخرج إلى من



بيته طبقا فوقه مكبة مشدود بمنديل فقال لى: أوصل هذا إلى من سميت لك بالفسطاط. قال: فأخذت الطبق فإذا طبق خفيف يدل على أن ليس فى جوفه شىء، فلما بلغت الجسر الذى بين الفسطاط والجيزة قلت فى نفسى: ذو النون يوجه إلى رجل بهدية وهذا أرى طبقا خفيفًا لأبصرن أى شىء فيه. قال فحللت المنديل ورفعت المكبة فإذا فأرة قد قفزت من الطبق فمرت. قال: فاغتظت وقلت إنما سخر بى ذو النون ولم يذهب وهمى إلى ما أراد فى الوقت. قال: فجئت إليه وأنا مغضب فلما رآنى تبسم وعرف القصة وقال: يا مجنون ائتمنتك فى فأرة فخنتنى. أئتمنك على اسم الله الأعظم. قم عنى فارتحل ولا أراك بعد هذا.

خامسًا - من عيون الشعر الصوفى لذى النون

من عيون الشعر الصوفى لذى النون :

* أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد البغدادى - فى كتابه وقد رأيته - وحدثنى عنه عثمان بن محمد العثمانى قال أنشدنى محمد بن عبد الملك بن هاشم لذى النون بن إبراهيم المصرى رحمه الله تعالى:

الحمد لله حمداً لا نفاد له * حمدا يفوت مدا الاحصاء والعدد

ويعجز اللفظ والأوهام مبلغه * حمداً كثيراً كاحصاء الواحد الصمد

ملء السموات والأرضين مذ خلقت * ووزنهن وضعف الضعف فى العدد

وضعف ما كان وما قد يكون إلى * بعد القيامة أو يفنى مدا الأبد

وضعف ما درت الشمس الشروق به * وما اختفى فى سماء أو ثرى جرد

وضعف أنعمه فى كل جارحة * وكل نفسة نفس واكتساب يد

شكراً لما خصنا من فضل نعمته * من الهدى ولطيف الصنع والرفد

رب تعالى فلا شىء يحيط به * وهو المحيط بنا فى كل مرتصد

لا الأين والحيث والكيف يدركه * ولا يحد بمقدار ولا أمد

وكيف يدركه حد ولم تره * عين وليس له فى المثل من أحد

أم كيف يبلغه وهم بلا شبه * وقد تعالى عن الأشباه والولد

من أنشأ قبل الكون مبتدعا * من غير شىء قديم كان فى الأبد

ودهر الدهر والأوقــات واخــتلفت * بما يشـــاء فلم ينقص ولم يزد
إذ لا ســمــاء ولا أرض ولا شــبح * في الكون سبحانه من قاهر صمد
مـا ازداد بالخلق ملكا حين أنشـأهم * ولا يريد بهم دفــعــا لمضطهــد
وكــيف وهو غني لافــتــقــار به * والخلق تضطر بالتـصـريف والأود
ولم يدع خلق مـا لم يبـد خلقـتـه * عـجـزا على سـرعـة منه ولا تؤد
إحـاطة بجـمـيع الغـيب عن قـدر * أحـصى بها كل مـوجـود ومـفتـقـد
وكلهم باضطرار الفـقـر مـعـتـرف * إلى فـواضله في كل مـعـتـمـد
العـالم الشيء في تصريف حالتـه * مـا عـاد منه ومـا يمضي فلم يعـد
ويعلم السر من نجوى القلوب ومـا * يخـفى عليـه خـفي جـال في خلد
ويسـمع الحس من كل الورى ويرى * مـدارج الذرفي صـفـو انه الجلد
ومـا توارى من الابصـار في ظلم * تحت الثـرى وقـرار الغم والنمـد
الأول الآخـر الفـرد المهـيـمن لم * يعـزب ولم يذكـر قـرب ولا بعـد
عــــــال على عليـم لا زوال لـه * ولم يزل أزليـا غـيـر ذي فـقـد
وجل في الوصف عن كنه الصفات وعن * مـقـال ذي الشك والا لحـاد والعند
من لا يجـازى بنعـمى من فـواضله * ولم ينله بمدح وصف مـجـتـهـد
وكل فكرة مـخلوق إذا اجـتـهـدت * بمدحـــــه لم تنـل إلا إلى الأبـد
مـسـبح بلغــات العــارفـات به * لم تدر مـا غـيـره ربا ولم تجـد
الفــالق النور والظلمـاء وهي على * مـــا تقــاذف بالأمـــواج والزبد

إذا مدها مد فوق الريح منشئها * فسبحت وهى فوق الماء فى ميد
وشدها بالجبال الصم فاطمأنت * أركانها بشداد الصخر والجلد
برا السموات سقفاثم أنشأها * سبعا طباقا بلا عون ولا عمد
تقلهن مع الأرضين قدرته * وكل ذلك لم يثقل ولم يؤد
وبث فيها صنوفا من بدائعه * من الخلائق من مثنى ومن وهد
من كل جنس برا أصنافه وذرا * أشباحه بين مكسور ومنجرد
فيها الملائك بالتسبيح خاضعة * لا يسأمون لطول الدهر والأمد
فمنهم تحت سوق العرش أربعة * كالثور والنسر والإنسان والأسد
فكل ذى خلقة يدعو لمشبهه * فى الخلق بالعيشة المرضية الرغد
برا السماء بروجا من كواكبها * تجرين من فلك الافلاك فى كبد
منها جوار ومنها راكد أبدا * والقطب فى مركز منهن كالوتد
والشهب تحرق فيها يبنين إلى * قذف الشياطين من جناتها المرد
وكل مسترق للسمع يتبعه * منها شهاب نجوم دائم الرصد
ويرفع الغيم أعصارها فترى * فيها الصواعق بين الماء والبرد
على هواء رقيق فى لطافته * يحيى به كل ذى روح وذى جسد
وصير الموت فوق الخلق لا لجأ * منه ولا هرب إلى سند
فالموت ميت وكل هالكون خلا * وجه الإله الكريم الدائم الصمد
أفنى القرون وأفنى كل ذى عمر * كعمر نوح ولقمان أخى لبد

يا رب انك ذو عفو ومغفرة * فنجنا من عذاب الموقف النكد
واجعل إلى جنة الفردوس موئلنا * مع النبيين والأبرار فى الخلد
سبحان ربك رب العز من ملك * من اهتدى بهدى رب العالمين هدى

★ ★ ★

* حدثنا أحمد بن محمد بن مقسم قال سمعت الحسن بن على بن خلف يقول سمعت إسرافيل يقول سمعت ذا النون المصرى يقول:

أموت وما ماتت إليك صبابتى * ولا رويت من صدق حبك أو طارى
منادى المناكل المنا أنت لى منى * وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدا سؤلى وغاية رغبتى * وموضع شكواى ومكنون إضمارى
تحمل قلبى فيك مالا أبثه * وإن طال سقمى فيك أو طال أضرارى
وبين ضلوعى منك مالولاك قد بدا * ولم يبد باديه لأهلى ولا جارى
وبى منك فى الاحشاء داء مخامر * فقد هد منى الركن واثبت أسرارى
ألست دليل الركب إن هم تحيروا * ومنقذ من أشفى على جرف هارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن * من النور فى أيديهم عشر معشارى
فنلنى بعفو منك أحيى بقربه * وغش بيسر منك فقرى وإعسارى

★ ★ ★

* حدثنا أحمد بن محمد بن مقسم قال سمعت الحسن بن على بن خلف قال لى إسرافيل: أنشدنى ذو النون المصرى:

مــجــال قلوب العــارفين بروضـــة * ســمــاوية من دونـهـا حــجب الرب
مـعـسكرها فـيـهـا مـجنى ثـمـارها * تتـــسم روح الإنس لله من قـــرب
يـكنفـهـــا من عـــالم الســـر قـــربه * فلو قـــدر الآجـــال ذابت من الحب
وأروى صداها صرف كـاسات حبه * وبرد نسـيم جل عن منتـهى الخطب
فـــيـــال قلوب قـــربت فـــتـــقـــربت * لذى العـرش ممن زين الملك بالقـرب
رضاها فارضاها فحازت مدا الرضى * وحلت من المحـبـوب بالمنزل الرحب
لهــا من لطيف الحب عـزم ســرت به * ويهـتك بالأفكار مـا داخل الحـجب
فـإن فـقـدت خـوف الفـراق لألفـهـا * أدامت حنينا تطلب الانس بالقـرب
ســرى ســرهـا بين الحـبـيب وبينـهـا * فـاضـحى مصـونا من سوى الرب فى القلب

سادسًا - متفرقات صوفية :

(١) ذو النون يعظ الخليفة المتوكل :

* حدثنا أبى ثنا أحمد ثنا سعيد بن عثمان حدثنى إبراهيم بن يحيى الزبدى قال: لما حمل ذو النون بن إبراهيم إلى جعفر المتوكل أنزله فى بعض الدور وأوصى به زرافة. وقال: أنا إذا رجعت غدا من ركوبى فأخرج إلى هذا الرجل، فقال له زرافة: إن أمير المؤمنين قد أوصانى بك، فلما رجع من الغد من الركوب قال له: انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام، فلما أخرجه إليه قال له: سلم على أمير المؤمنين، فقال ذو النون: ليس هكذا جاءنا الخبر، إنما جاءنا فى الخبر أن الراكب يسلم على الراجل. قال: فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام فنزل إليه أمير المؤمنين فقال له: أنت زاهد أهل مصر؟ قال: كذا يقولون. فقال له: فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد. قال: فأطرق مليا ثم قال: يا أمير المؤمنين إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم، يا أمير المؤمنين إن لله عبادا عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه، أبدانهم

دنياوية، وقلوبهم سماوية، قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفرج وأطباق السموات، لم يخبتوا فى ربيع الباطل، ولم يرتعوا فى مصيف الآثام، ونزهوا الله أن يراهم يثبون على حبائل مكره، هيبة منهم له وإجلالا أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشىء لا يدوم، وبلذة من العيش مزهودة، فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أطباق أهل المعرفة بالأدواء والنظر فى منابت الدواء، فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر، فقال لهم:إن أتاكم عليل من فقدى فداووه، أو مريض من تذكرى فأدنوه، أو ناس لنعمتى فذكروه، أو مبارز لى بالمعاصى فنابذوه أو محب لى فواصلوه، يا أوليائى فلكم عاتبت ولكم خاطبت ومنكم الوفاء طلبت، لا أحب استخدام الجبارين، ولا تولى المتكبرين، ولا مصافاة المترفين، يا أوليائى وأحبابى جزائى لكم أفضل الجزاء، وإعطائى لكم أفضل العطاء، وبذلى لكم أفضل البذل، وفضلى عليكم أوفر الفضل، ومعاملتى لكم أوفى المعاملة، ومطالبتى لكم أشد مطالبة، وأنا مقدس القلوب، وأنا علام الغيوب، وأنا عالم بمجال الفكر، ووسواس الصدور من أرادكم قصمته، ومن عاداكم أهلكته. ثم قال ذو النون بحبك وردت قلوبهم على بحر محبته فاغترقت منه ريا من

الشراب فشربت منه بمخاطر القلوب، فسهل عليها كل عارض عرض لها عند لقاء المحبوب، فواصلت الأعضاء المبادرة، وألفت الجوارح تلك الراحة، فهم رهائن أشغال الأعمال، قد اقتلعتهم الراحة بما كلفوا أخذه عن الانبساط بما لا يضرهم تركه، قد سكنت لهم النفوس، ورضوا بالفقر والبوس، واطمأنت جوارحهم على الدؤوب على طاعة الله عز وجل بالحركات، وظعنت أنفسهم عن المطاعم والشهوات، فتوالهوا بالفكرة، واعتقدوا بالصبر، وأخذوا بالرضا، ولهوا عن الدنيا، وأقروا بالعبودية للملك الديان، ورضوا به دون كل قريب وحميم، فخشعوا لهيبته، وأقروا له بالتقصير، وأذعنوا له بالطاعة، ولم يبالوا بالقلة، إذا خلوا، بأقل بكاء وإذا عوملوا فاخوان حياء وإذا كلموا فحكماء وإذا سئلوا فعلماء وإذا جهل عليهم فحلماء فلو قد رأيتهم لقلت عذارى فى الخدور، وقد تحركت لهم المحبة فى الصدور بحسن تلك الصور التى قد علاها النور، إذا كشفت عن القلوب رأيت قلوبا لينة منكسرة، وبالذكر نائرة وبمحادثة المحبوب عامرة، لا يشغلون قلوبهم بغيره، ولا يميلون إلى ما دونه، قد ملأت محبة الله صدورهم، فليس يجدون لكلام المخلوقين شهوة، ولا بغير الأنيس ومحادثة الله لذة، إخوان صدق وأصحاب حياء

ووفاء وتقى وورع وإيمان ومعرفة ودين، قطعوا الأودية بغير مفاوز، واستقلوا الوفاء بالصبر على لزوم الحق، واستعانوا بالحق على الباطل فأوضح لهم الحجة، ودلهم على المحجة، فرفضوا طريق المهالك، وسلكوا خير المسالك ودلهم أولئك هم الأوتاد الذين بهم توهب المواهب، وبهم تفتح الأبواب، وبهم ينشأ السحاب، وبهم يدفع العذاب، وبهم يستقى العباد والبلاد، فرحمة الله علينا وعليهم.

(٢) ويعظ صاحبه أبى زرافة :

* حدثنا عثمان بن محمد أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى حدثنى محمد بن أحمد الحذاء قال سمعت هارون بن عيسى البغدادى يقول حدثنى أبى عن زرافة صاحب المتوكل قال: لما انصرف ذو النون من عند أمير المؤمنين دخل على ليودعنى فقلت له: اكتب لى دعوة. ففعل فقربت إليه جام لوزينج فقلت له: كل من هذا فإنه يزن الدماغ وينفع العقل. فقال ينفعه غير هذا. قلت: وما ينفعه؟ قال: اتباع أمر الله والانتهاء عن نهيه أما علمت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إنما العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه؟ فقلت: أكرمنى بأكله فقال: أريد غير هذا. قلت: وأى شىء تريد؟ فقال: هذا لمن لا يعرف الحلو ولا يعرف أكله وإن أهل معرفة الله

يتحذرون خلاف هذا اللوزينج. قلت: لا أظن أحداً فى الدنيا يحسن أن يتخذ أجود من هذا، وأن هذا من مطبخ أمير المؤمنين المتوكل على الله. فقال: أنا أصف لك لوزينج المتوكل على الله. قلت: هات لله أبوك. قال: خذ لباب مكنون محض طعام المعرفة، واعجنه بماء الاجتهاد، وانصب اثقية الانكماد، وطابق صفو الوداد، ثم خبز خبز لوزينج العباد، بحر نيران نفس الزهاد، وأوقده بحطب الأسى حتى ترمى نيران وقودها بشرر الضنا، ثم احش ذلك بقيد الرضا، ولوز الشجا من ضوضان بمهراس الوفا مطيبا بطينة رقة عش الهوى، ثم اطوه طى الأكياس للأيام بالعرا، وقطعه بسكاكين السهر فى جوف الدجا ورفض لذيذ الكرا، ونضده على جامات القلق والسهر، وانتثر عليه سكراً بعمل من زفرات الحرق، ثم كله بأنامل التفويض فى ولائم المناجاة بوجدان خواطر القلوب، فعند ذلك تفريج كرب القلوب، ومحل سرور المحب بالملك المحبوب، ثم ودعنى.

(٣) قول جامع فى معالم «الطريق إلى الله»

من الإخلاص فى"الصلاة" إلى «الإنس بالله»:

* أخبرنا محمد بن أحمد البغدادى - فى كتابه - وحدثنى عنه عثمان بن محمد خدثنى أبو محمد عبد الله بن سهل قال سمعت ذا

النون المصرى أبا الفيض وسألته قلت: متى تخلص لله صلاتى؟ قال إذا سكنت معادن الأنوار من قلبك ونفذته فى ملكوت همك. قلت متى يتم زهدى بعد ورعى؟ قال: إذا جعلت الفرض لك معلما، وأقمت الطاعة لك مفهما. قلت فمتى أو من؟ قال: إذا اشتمل الفرض على أمرك، وملكت الطاعة على نفسك. قلت: فمتى أتوكل؟ قال: اليقين إذا تم سمي توكلا، قلت: متى يتم حبى لربى؟ قال: إذا سمجت الدنيا فى عينك، وقذفت أملك فيها بين يديك. قلت: فمتى أخاف ربى؟ قال إذا سرحت بصرك فى عظمته، ومثلت لنفسك أمثال نقمته. قلت: متى يتم صومى؟ قال إذا جوعت نفسك من البغضاء، وأمت لسانك من الفحشاء. قلت: فمتى أعرف ربى؟ قال: إذا كان لك جليسا ولم تر لنفسك سواه أنيسا قلت: فمتى أحب ربى؟ قال: إذا كان ما أسخطه عندك أمر من الصبر قلت: فمتى أشتاق إلى ربى؟ قال: إذا جعلت الآخرة لك قرارا، ولم تسم الدنيا لك مسكنا ودارا قلت: فمتى يشتد فى بغض الدنيا؟ قال إذا جعلت الدنيا طريق مخافة لا تلتفت إلى ما قطعت منها وجعلت الآخرة ساحة مأمونة لا تأمن إلا بالنزول فيها.

قلت: فمتى أحب لقاء ربى؟ قال: إذا كنت تقدم على حبيب وتصير عن أمر قريب. قلت: فمتى أستلذ الموت؟ قال: إذا جعلت الدنيا خلف ظهرك، وجعلت الآخرة نصب عينيك. قلت فمتى أتقى شهوات مطاعم الأرض؟ قال إذا خالط قلبك الملكوت ومزج فى سرائر الجبروت قلت فمتى تطيب معرفتى؟ قال: إذ استوحشت من الدنيا واشتد فرحك بنزول البلاء. قلت: فمتى أستقبح الدنيا؟ قال: إذا علمت أن زينتها فساد كل معنى، وأن محاسنها تقضى إلى كل حسرة. قلت: فمتى أكتفى بأهون الأغذية؟ قال: إذا عرفت هلاك الشهوات وسرعة انقطاع عذوبة اللذات. قلت: فمتى قنوع التمام؟ قال: إذا كان زخرف الدنيا عندك صغيراً، وكان خوف الآخرة لك ذكراً. قلت: فمتى أستحق ترك الجمع؟ قال: إذا عرفت أنك منقول إلى معاد وأنك مأخوذ بتبعات العباد. قلت: فمتى آمر بالمعروف؟ قال: إذا كانت شفقتك على غيرك وخالفت العباد لمحبة ربك. فمتى أوثر الله ولا أوثر عليه سواه؟ قال: إذا أبغضت فيه الحبيب، وجانبت فيه القريب. قلت: فمتى أفزع إلى ذكره وآنس بشكره؟ قال: إذا سررت ببلائه وفرحت بنزول قضائه.

(٤) من ابتهالات العارفين :

* حدثنا محمد بن أحمد بن الصباح ثنا أبو بكر محمد بن خلف المؤدب - وكان من خيار عباد الله - قال: رأيت ذا النون المصرى على ساحل البحر عند صخرة موسى، فلما جن الليل خرج فنظر إلى السماء والماء فقال: سبحان الله ما أعظم شأنكما، بل شأن خالقكما أعظم منكما ومن شأنكما. فلما تهور الليل لم يزل ينشد هذين البيتين إلى أن طلع عمود الصبح:

اطلبوا لأنسكم مثل ما وجدت أنا

قد وجدت لى مكنا ليس هو فى هواه عنا

إن بعدت قربنى أو قربت منه دنا

* أنشدنا عثمان بن محمد العثمانى قال أنشدنى العباس بن أحمد لذى النون المصرى:

إذا ارتحل الكرام إليك يوما * ليلتمسوك حالا بعد حال

فإن رحالنا حطت لترضى * بحلمك عن حلول وارتحال

أنخنا فى فنائك يا إلهى * إليك معرضين بلا اعتلال

فمسنا كيف شئت ولا تكلنا * إلى تدبيرنا يا ذا المعالى

★ ★ ★



* حدثنا أحمد بن محمد بن مصقلة ثنا أبو عثمان سعيد بن عثمان قال سمعت ذا النون يقول: أسألك باسمك الذى ابتدعت به عجائب الخلق فى غوامض العلم، يجود جلال جمال وجهك فى عظيم عجيب تركيب أصناف جواهر لغاتها فخرت الملائكة سجدا لهيبتك من مخافتك، أن تجعلنا من الذين سرحت أرواحهم فى العلى، وحطت همم قلوبهم فى مغلبات الهوى، حتى أناخوا فى رياض النعيم وجنوا من ثمار التسليم وشربوا بكأس العشق وخاضوا لجج السرور واستظلوا تحت فناء الكرامة اللهم اجعلنا من الذين شربوا بكأس الصفا فأورثهم الصبر على طول البلا، حتى توليت قلوبهم فى الملكوت، وجالت بين سرائر حجب الجبروت ومالت أرواحهم فى ظل برد نسيم المشتاقين الذين أناخوا فى رياض الراحة ومعدن العز وعرسات المخلدين.

* حدثنا عثمان بن محمد العثمانى ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد ثنا محمد ابن عبد الملك بن هاشم قال سمعت ذا النون المصرى يقول فى دعائه: اللهم إليك تقصد رغبتى، وإياك أسأل حاجتى ومنك أرجو نجاح طلبتى، وبيدك مفاتيح مسألتى لا أسأل الخير إلا منك ولا أرجوه من غيرك ولا أيأس من روحك بعد معرفتى

بفضلك، يا من جمع كل شىء حكمته، ويا من نفذ فى كل شىء حكمه، يا من الكريم اسمه لا أحد لى غيرك فأسأله، ولا أثق بسواك فآمله، ولا أجعل لغيرك مشيئة من دونك أعتصم بها، وأتوكل عليه، فمن أسأل إن جهلتك، وبمن أثق بعد إذ عرفتك اللهم إن ثقتى بك وأن ألهتنى الغفلات عنك وأبعدتنى العثرات منك بالاغترار، يا مقيل العثرات إن لم تتلافنى بعصمة من العثرات فإنى لا أحول بعزيمة من نفسى ولا أروم على خليفة بمكان من أمرى. أنا نعمة منك وأنا قدر من قدرك، أجرى فى نعمك، وأسرح فى قدرك، ازداد على سابقة علمك، ولا انتقص من عزيمة أمرك، فأسألك يا منتهى السؤالات، وارغب إليك يا موضع الحاجات سواك، من قد كذب كل رجاء إلا منك ورغبة من رغب عن كل ثقة إلا عنك، أن تهب لى إيمانا أقدم به عليك، وأوصل به عظم الوسيلة إليك، وأن تهب لى يقينا لا توهنه بشبهة أفك، ولا تهنه خطرة شك، ترحب به صدرى، وتيسر به أمرى، ويأوى إلى محبتك قلبى، حتى لا ألهو عن شكرك، ولا أنعم إلا بذكرك يا من لا تمل حلاوة ذكره ألسن الخائفين، ولا تكل من الرغبات إليه مدامع الخاشعين، أنت منتهى سرائر قلبى فى خفايا الكتم، وأنت موضع رجائى بين إسراف

الظلم. من ذا الذى ذاق حلاوة مناجاتك فلها بمرضاة بشر عن طاعتك ومرضاتك؟ رب أفنيت عمرى فى شدة السهو عنك، وأبليت شبابى فى سكرة التباعد منك، ثم لم أستبطئ لك كلاءة ومنعة فى أيام اغتراري بك وركونى إلى سبيل سخطك، وعن جهل يا رب قربتنى الغرة إلى غضبك، أنا عبدك ابن عبدك قائم بين يديك متوسل بكرمك إليك، فلا يزلنى عن مقام أقمتنى فيه غيرك، ولا ينقلنى من موقف السلامة من نعمك إلا أنت أتتصل إليك بما كنت أواجهك به من قلة استحيائى من نظرك، وأطلب العفو منك يا رب إذ العفو نعمة لكرمك يا من يعصى ويتاب إليه فيرضى، كأنه لم يعص بكرم لا يوصف، وتحنن لا ينعت، يا حنان بشفقته، يا متجاوزاً بعظمته، لم يكن لى حول فأنتقل عن معصيتك إلا فى وقت أيقظتنى فيه لمحبتك، وكما أردت أن أكون كنت، وكما رضيت أن أقول قلت، خضعت لك وخشعت لك إلهى لتعزنى بإدخالى فى طاعتك، ولننظر إلى نظر من ناديته فأجابك واستعملته بمعونتك فأطاعك، يا قريب لا تبعد عن المعتزين، ويا ودود لا تعجل على المذنبين، اغفر لى وارحمنى يا أرحم الراحمين.

* * *



* حدثنا سليمان بن أحمد ثنا على بن الهيثم المصرى قال سمعت ذو النون المصرى العابد أبا الفيض يقول: اللهم اجعلنا من الذين جازوا ديار الظالمين، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين وشابوا ثمرة العمل بنور الإخلاص، واستقوا من عين الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح اليقين، ولججوا فى بحر النجاة، ورسوا بشط الإخلاص. اللهم اجعلنا من الذين سرحت أرواحهم فى العلا، وحطت همم قلوبهم فى عاريات التقى حتى أناخوا فى رياض النعيم، وجنوا من رياض ثمار التسليم، وخاضوا لجة السرور، وشربوا بكأس العيش. واستظلوا تحت العرش فى الكرامة. اللهم اجعلنا من الذين فتحوا باب الصبر وردموا خنادق الجزع، وجازوا شديد العقاب، وعبروا جسر الهوى، فإنه تعالى يقول ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ اللهم اجعلنا من الذين أشارت إليهم أعلام الهداية، ووضحت لهم طريق النجاة، وسلكوا سبيل إخلاص اليقين.

* * *

* حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم حدثنى أحمد بن محمد ابن حمدان النيسابورى أبو حامد ثنا عبد القدوس بن عبد الرحمن الشامى قال سمعت أبا الفيض ذا النون بن إبراهيم المصرى يقول: إلهى وسيلتى إليك نعمك على، وشفيعى إليك إحسانك إلى، إلهى أدعوك فى الملا كما تدعى الأرباب، وأدعوك فى الخلا كما تدعى الأحباب، أقول فى الملأ يا إلهى، وأقول فى الخلا يا حبيبى أرغب إليك وأشهد لك بالربوبية مقرا بأنك ربى، وإليك مردى، ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئا مذكورا، وخلقتنى من تراب ثم أسكنتنى الأصلاب ونقلتنى إلى الأرحام، ولم تخرجنى برأفتك فى دولة ايمة ثم أنشأت خلقى من منى يمنى ثم أسكنتنى فى ظلمات ثلاث بين دم ولحم ملتاث وكونتنى فى غير صورة الاناث ثم نشرتنى إلى الدنيا تاما سويا وحفظتنى فى المهد طفلا صغيرا صبيا، ورزقتنى من الغذاء لبنا مريا، وكفلتنى حجور الأمهات واسكنت قلوبهم رقة لى وشفقة على وربيتنى بأحسن تربية ودبرتنى بأحسن تدبير وكلائتنى من طوارق الجن وسلمتنى من شياطين الانس وصنتنى من زيادة فى بدنى تشيننى ومن نقص فيه يعيبنى فتباركت ربى وتعاليت يا رحيم فلما استهللت بالكلام أتممت على

سوابغ الأنعام، وأنبتنى زائداً فى كل عام، فتعاليت ياذا الجلال والاكرام، حتى إذا ملكتنى شانى، وشددت أركانى أكملت لى عقلى، حجاب الغفلة عن قلبى وألهمتنى النظر فى عجيب صنائعك، وبدائع عجائبك ورفعت وأوضحت لى حجتك ودللتنى على نفسك وعرفتنى ما جاءت به رسلك، ورزقتنى من أنواع المعاش وصنوف الرياش بمنك العظيم، وأحسانك القديم، وجعلتنى سويا ثم لم ترض لى بنعمة واحدة دون أن أتممت على جميع النعم، وصرفت عنى كل بلوى، وأعلمتنى الفجور لأجتنبه، والتقوى لأقترفها، وأرشدتنى إلى ما يقربنى إليك زلفى، فإن دعوتك أجبتنى، وإن سألتك أعطيتنى، وإن حمدتك شكرتنى، وإن شكرتك زودتنى.

إلهى فأى نعم أحصى عددا؟ وأى عطائك أقوم بشكره؟ أما أسبغت على من النعماء أو صرفت عنى من الضراء. إلهى أشهد لك بما شهد لك باطنى وظاهرى وأركانى، إلهى إنى لا أطيق إحصاء نعمك فكيف أطيق شكرك عليها؟ وقد قلت وقولك الحق (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أم كيف يستغرق شكرى نعمك وشكرك من أعظم النعم عندى وأنت المنعم به على، كما قلت سيدى (وما بكم من نعمة فمن الله) وقد صدقت قولك. إلهى وسيدى بلغت رسلك بما

أنزلت إليهم من وحيك غير أني أقول بجهدى ومنتهى علمى ومجهود وسعى ومبلغ طاقتى: الحمد لله على جميع إحسانه حمدا يعدل حمد الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين.

* * *

* حدثنا أحمد بن محمد بن مصقلة ثنا أبو عثمان سعيد بن عثمان قال سمعت ذا النون أبا الفيض يقول: اللهم اجعلنا من الذين تفكروا فاعتبروا، ونظروا فأبصروا، وسمعوا فتعلقت قلوبهم بالمنازعة إلى طلب الآخرة حتى أناخت وانكسرت عن النظر إلى الدنيا وما فيها ففتقوا بنور الحكم ما رتقه ظلم الغفلات وفتحوا أبواب مغاليق العمى بأنوار مفاتيح الضياء، وعمروا مجالس الذاكرين بحسن مواظبة استيدام الثناء اللهم اجعلنا من الذين تراسلت عليهم ستور عصمة الأولياء، وحصنت قلوبهم بطهارة الصفاء وزينتها بالفهم والحياء، وطيرت همومهم فى ملكوت سمواتك حجابا حتى تنتهى إليك فرددتها بظرائف الفوائد. اللهم اجعلنا من الذين سهل عليهم طريق الطاعة وتمكنوا فى أزمة التقوى، ومنحوا بالتوفيق منازل الأبرار، فزينوا وقربوا وكرموا بخدمتك.

وسمعته يقول: لك الحمد يا ذا المن والطول والآلاء والسعة، إليك توجهنا وبفنائك أنخنا ولمعروفك تعرضنا، وبقربك نزلنا، يا حبيب التائبين، ويا سرور العابدين، ويا أنيس المنفردين، ويا حرز اللاجين، ويا ظهر المنقطعين، ويا من حبب إليه قلوب العارفين وبه نست أفئدة الصديقين، وعليه عطفت رهبة الخائفين، يا من أذاق قلوب العابدين لذيذ الحمد، وحلاوة الانقطاع إليه، يا من يقبل من تاب ويعفو عمن أناب، ويدعو المولين كرما، ويرفع المقبلين إليه تفضلا، يا من يتأنى على الخاطئين، ويحلم عن الجاهلين، ويا من حل عقدة الرغبة من قلوب أوليائه، ومحا شهوة الدنيا عن فكر قلوب خاصته وأهل محبته، ومنحهم منازل القرب والولاية، ويا من لا يضيع مطيعا، ولا ينسى صبيا، يا من منح بالنوال، ويا من جاد بالاتصال، ياذا الذى استدرك بالتوبة ذنوبنا، وكشف بالرحمة غمومنا، وصفح عن جرمنا بعد جهلنا، وأحسن إلينا بعد إساءتنا، يا أنس وحشتنا ويا طبيب سقمنا، يا غياث من أسقط بيده، وتمكن حبل المعاصى وأسفر خدرا لحيا عن وجهه، هب خدودنا للتراب بين يديك يا خير من قدر وأرأف من رحم وعفا.

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

مختارات من نصوص ذى النون المصرى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


الصفحة
الموضوع

مؤلفات أ. د. مصطفى النشار

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها فى الفلسفة الإسلامية والغربية :

- صدرت الطبعة الأولى عن دار التنوير - بيروت ١٩٨٤م.
- صدرت الطبعة الثانية عن مكتبة مدبولى بالقاهرة ١٩٨٦م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٩٧م.
- صدرت الطبعة الرابعة عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة ٢٠٠٥م.

(٢) نظرية المعرفة عند أرسطو:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٥م.
- صدرت الطبعة الثانية والثالثة عن نفس الدار عامى ١٩٨٧-١٩٩٧م.
- صدرت الطبعة الرابعة عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٠م.



(٣) نظرية العلم الأرسطية - دراسة فى منطق المعرفة العلمية عـند أرسطو:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٦م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ١٩٩٥م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن دار الثقافة العربية بالقاهرة عام ٢٠٠٠م.

(٤) فلاسفة أيقظوا العالم:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٨٨م.
- صدرت الطبعة الثانية عن دار الكتاب الجامعى بالعين، دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٩٠م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٨م.

(٥) نحو رؤية جديدة للتأريخ الفلسفى باللغة العربية:

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة عام ١٩٩٥م.
- صدرت الطبعة الثانية بعنوان «نحو تأريخ عربى للفلسفة» عن دار قباء عام ٢٠٠١م.

(٦) نحـو تأريخ جـديد للفلسـفـة القديمـة - دراسـات فى الفلسفـة المصرية واليونانية.

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة عام ١٩٩٢م.

- صدرت الطبعة الثانية عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(٧) مـدرسـة الاسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفـة اليونانية:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٥م.

(٨) فلسفة التاريخ - معناها ومذاهبها:

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة عام ١٩٩٥م.

(٩) التفكير الفلسفى للصف الثالث الثانوى الأدبى (بالاشتراك):

- صدر عن وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة، نشرته دار الغرير للطباعة والنشر، دبى عام ١٩٩٥م.

(١٠) التفكير المنطقى للصف الثالث الثانوى الأدبى (بالاشتراك):

- صدر عن وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة، نشرته دار الغرير للطباعة والنشر، دبى عام ١٩٩٥م.



(١١) مكانة المرأة فى فلسفة أفلاطون - قراءة فى محاورتى «الجمهورية والقوانين»:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠١م.

(١٢) من التاريخ إلى فلسفة التاريخ - قراءة فى الفكر التاريخى عند اليونان:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(١٣) المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(١٤) مدخل لقراءة الفكر الفلسفى عند اليونان:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(١٥) مدخل جديد إلى الفلسفة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٨م.



- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠٣م.

(١٦) الخطاب السياسى فى مصر القديمة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٨م.

(١٧) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الأول) السابقون على السوفسطائيين:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٨م.

- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠٤.

(١٨) ضد العولمة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٩م.

- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار القاهرة عام ٢٠٠١م.

(١٩) فى فلسفة الثقافة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٩م.

(٢٠) تطور الفكر السياسى القديم من صولون حتى ابن خلدون:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٩م.

(٢١) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الثانى) السوفسطائيون – سقراط – أفلاطون:

– صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة على ٢٠٠٠م .

– صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠٤م.

(٢٢) بين قرنين – معا إلى الألفية السابعة:

– صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ٢٠٠٠م.

(٢٣) رواد التجديد فى الفلسفة المصرية المعاصرة فى القرن العشرين.

– صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٢م .

(٢٤) أرسطوطاليس – حياته وفلسفته:

– صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٢٥) أعلام التراث الفلسفى المصرى – على بن رضوان وفلسفته النقدية:

– صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٣م .

(٢٦) أعلام التراث الفلسفى المصرى – زكى نجيب محمود والحوار الأخير:

– صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٣م .

(٢٧) ما بعد العولمة – قراءة لمستقبل التفاعل الحضارى:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٣م.

(٢٨) حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظرى والواقع العملى:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

(٢٩) ثقافة التقدم وتحديث مصر:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

(٣٠) الفكر الفلسفى فى مصر القديمة:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

(٣١) تطور الفلسفة السياسية (من صولون حتى ابن خلدون):

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٥م.

(٣٢) مدخل إلى الفلسفة:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٥م.

